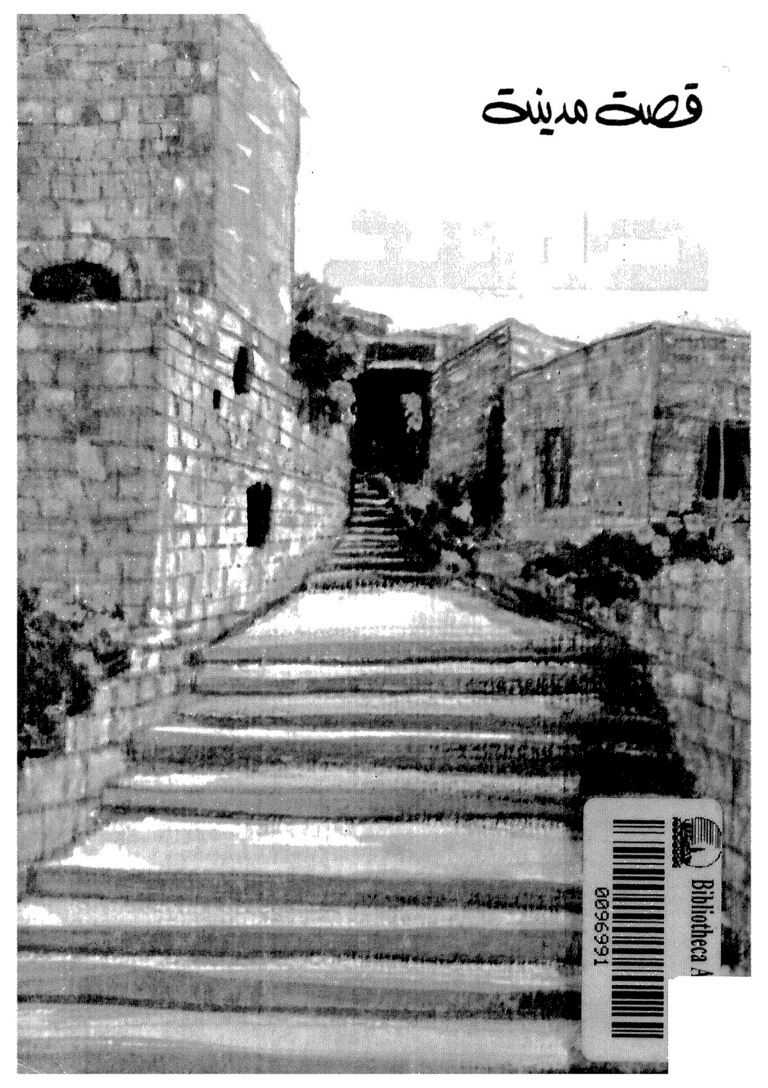

قصة مدينة

قصة مدينة



تأليف

يسار العسكري

ـة المدن الفلسطينية (١١)

ـن : المنظمـة العـربيـة للتربيـة والثقافة والعلوم

دائـرة الثقـافة بمنظمة التحرير الفلسطينية



حي قديم في صفد

للفنان وليد علي

سكرتير التحرير ومنسق المشروع حسـين العـودات

المحتوى



تصديـــر

اهتمت المؤتمـرات الثقـافيـة والنـدوات على مستـوى الـوزراء والمسؤولـين والخـبراء العـرب، بالحفاظ على الثقافة العربية الفلسطينية والتراث الفلسطيني، وتجـديـدهما وتعـريف الأجيـال النـاشئة بهما، وبمواجهة الغزو الثقافي الصهيوني، واعتمد المؤتمر العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ومجلسها التنفيذي، مخططاً متعـدد الجـوانب، متنـوع الأساليب، للوصول إلى هذا الهدف. وقد تمت تهيئة الشروط المناسبة، لتنفيذ هذا المخطط، الذي يشمل اصدار دراسات علمية في اطار مشروع (سلسلة المدن الفلسطينية)، بالتعاون بين المنظمة العربية للتربية والثقـافـة والعلوم، ودائرة الثقافة بمنظمة التحرير الفلسطينية، بهدف اعطاء فكرة جامعة عن هذه المدن، تتضمن واقعها الجغرافي، وتطورها العمراني عبر العصور، وتـاريخهـا، وأنشطتهـا الاقتصـاديـة والاجتماعية والثقافية، ورصد التاريخ النضالي لسكـانهـا، ليستفيـد منهـا الطـالب والعـامل، والمثقف والمختص على حد سواء، ولتبقى وثيقة حية في ذاكرة الامة العربية.

وإن هذا المشـروع، الـذي يعتبر عملاً قومياً وثقافياً، يمثل جانباً من نشاط المنظمـة في المجـال الفلسطيني، ومسـاهمة في بناء الثقافة الفلسطينية، وتقوية عرى العـلاقـة بين الفلسطينيين ووطنهم. وإني أشيد هنا بالجهود الطيبة التي تبذلها دائرة الثقافة بمنظمة التحرير، وبالعمل العلمي المسؤول الذي تقوم عليه هيئة التحرير لإصدار كتب هذه السلسلة القومية.

ومن الله التوفيق

الدكتور محي الدين صابر

المدير العام

للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم



خارطة فلسطين

الفصل الأول
البيئة الجغرافية والإطار العام

الموقع والسكان: تقع مدينة صفد على خط العرض (٣٢,٥٨°) شمالاً وخط الطول (٣٥,٢٩°)، وهي مدينة أقيمت في الجليل الأعلى وكانت عبر التاريخ عاصمة له، إذ تبعد عن حدود فلسطين الشمالية، ٢٩كم، وتبعد عن القدس حوالي ٢٠٦كم. وتبلغ مساحتها حوالي ٥ آلاف دونم، وكان عدد سكانها قبل الاحتلال الصهيوني حوالي اثني عشر ألف نسمة عام ١٩٤٥. وبلغت المساحة المزروعة في صفد في هذه الفترة (٢٠٢٥) دونماً، تمثل ٢٣,١٣٪ من مساحة أراضي المدينة، كما بلغت المساحة المزروعة بالحبوب (١٨٦٢) دونمًا تمثل ٩١,٩٥٪ من جملة المساحة المزروعة للعام نفسه، في حين بلغت مساحة الأرض المروية والمشجرة (١٦٣) والمبنية (٢٤٠٧)دونمات، أي ٥٤,٣٠٪ من مساحة أراضي المدينة لعام ١٩٤٥. وبلغ عدد اليهود فيها ٢٤٠٠ نسمة يمثلون ٢٠,١٪ من مجموع السكان[1].

ويصف شيخ الربوة (محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي) في كتابه (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر)[2] موقع صفد بقوله: «وصفد حصن بقبّة جبل

---

١ ـ مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٦، القسم الثاني، بيروت ١٩٧٤.

٢ ـ نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، شيخ الربوة الدمشقي، ص ٢٠١، مطابع وزارة الثقافة، دمشق ١٩١٣.

كنعان في أرض الجرمق، كانت قرية فبُني حصن سمّي (صفت) ثم قيل (صفد) وهو حصن منيع، وكان بها طائفة من الفرنج يقال لهم الداوّية[3] فحصرهم فيها الملك الظاهر بيبرس الصالحي وفتحها. . . ثم بنى بوسطها برجاً مدوراً ارتفاعه في السماء مائة وعشرون ذراعاً وقطره سبعون ذراعاً، وإلى سطحه طريقان يصعد في الطريق إلى اعلاه خمسة أفراس صفاً بلا درج في ممشى حلزون. وهو ثلاث طبقات: أبنية ومنافع وقاعات ومخازن: وتحت طله بئر للماء في الشتاء يكفي لاهل الحصن من الحول إلى الحول».

ولقد أجمع جميع الرحالة والمؤرخين الذين كتبوا عنها، على جمالها نظراً لما تتحلى به من جمال الطبيعة وبهاء المناظر المحيطة بها، ولا سيما في فصل الربيع، فهي غنية بالاشجار المزهرة ويتحول جبل كنعان في هذا الفصل إلى لوحة من زهر اللوز الأبيض أو المائل إلى الحمرة. وكانت منطقة الرجوم شهيرة بالازهار البرية المتنوعة، وكذلك سفوح الجبال والتلة وامتدادات الوديان. فالرحالة الترّكي (أولياشلبي) ذكر صفد التي نزل بها قائلاً: «بعد أن أقمت أحد عشر ساعة في (ميرون) توجهت إلى صفد شرقاً فبَدتْ لنا حمامة بيضاء تتحفز للطيران» وقال الرحالة (بير كهارت) حين زارها سنة ١٨١٢: «تشرف تلة صفد على منظر واسع يمتد حتى حيفا، وحينما يكون الجو صافياً يمكن أن يُرى منها البحر». وتشتهر البلدة بحكم موقعها الجغرافي البارز، بنقاء هوائها العليل حيث تشرف على سهل الحولة وبحيرة (طبريا) ويشكل البحر خطَّ غروبها الواسع المفتوح. ولذلك تحولت هذه المدينة عبر الزمن إلى مصح طبيعي ومصيف للاستجمام والاستشفاء. وحركَ جمال الطبيعة فيها، مشاعر الأدباء من أهلها، ففي ديوان محي الدين الحاج عيسى[4]، صورٌ تذكر بحسن جمال صفد ومناطقها، يقول واصفاً (وادي الطواحين)[5]:

---

٣ ـ طائفة من الصليبيين المتعصبين الذين احترفوا القتال ضد المسلمين، اتصفت بالتقشف.

٤ ـ أحد أبناء الأسرة المعروفة في البلدة، عمل في التدريس منذ أواخر العشرينات في صفد ونابلس، توفي في حلب بعد النكبة ١٩٧٤، وله ديوان شعر مطبوع ومسرحيتان

٥ ـ من الغرب من البلدة وسيرد تفصيلات عنه.

وادي الطواحين! كيف الروضُ والزهر والظل والدوح والجنّاتُ والثمر
والأرض مشرقة حاكت خمائلُها غلائلاً، تاه في توشيحها النظر

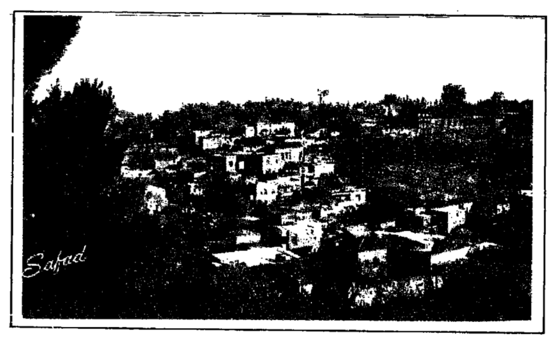
ويصف الربيع قائلاً:

وأتى الربيع يعودنا فتزخرفت قمم الربى وتزينت صحف الثرى
وإذا التفت إلى (الزبود[٦]) رأيت ما يَستلُ هماً في الصدور تصدرا

أما القاضي اسكندر البيتجالي، الذي عمل قاضياً في البلدة، فقد قال في قصيدة ألقاها في حفل وداعي أقيم له:

صفد وهاتيك المشاهدُ كلُّها سحرٌ بسحرِ
البحرة الزرقاء، تحت قبابها مزجت بخمر
صفد وما صفد سوى بلد لها قلبي وفكري

ذكر مؤلفا كتاب (ولاية بيروت ـ القسم الجنوبي) وهما (رفيق التميمي) و(بهجت الحلبي) ما يلي: «قصبة صفد مبنيّة على جبل يرتفع ٨٣٥م عن سطح



صفد منظر عام

٦ ـ امتداد جبل الجرمق إلى الغرب من البلدة.

البحر محاطة بالكروم والجنائن وبشجر الزيتون، هواؤها لطيف جداً. وإن أعلى موقع في الجليل هو صفد. أما منظر المدينة من أعلى التلة ومن القلعة الخربة فجميلٌ جداً».

كما أنها تُدعى بجنة ذوي المواهب أو الميول الفنية نظراً لهدوئها وجمال موقعها الطبيعي، ولاسيما خضرتها وازهارها وكثرة بساتينها، ومع الزمن تطورت لتتحول إلى مركز يقصده الناس للعلاج الطبيعي من أمراض الصدر وللاستشفاء إضافة إلى تحولها إلى مدينة الفنانين حالياً بعد الاحتلال الصهيوني لها. . . .

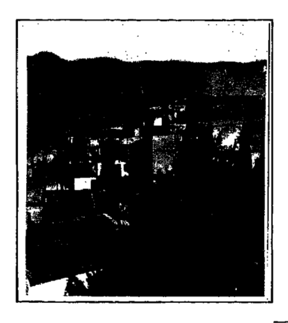
ولقد حافظت المدينة على مر العصور، على الطابع العربي الاسلامي حيث يُوصف اهلها بأنهم محافظون على الثقافة العربية الاسلامية معرفةً وتقليداً وعادات. واحتوت (صفد) على شواهد تاريخية تذكّر بأبرز الأحداث التي عاصرها سكانها، وبخاصة مافيها من مزارات ومساجد وزوايا ومقابر احتضنت رفات

شهداء المدينة عبر العصور وتحدث عنها من زارها قديًما وحديثاً. ولذلك دفعت المدينة الدماء ثمناً لتحريرها من الصليبيين أيام صلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس. وتحولت إلى منطقة رئيسية أثناء ثورات الشعب الفلسطيني بوجه الانتداب البريطاني ثم الاستيطان الصهيوني وكانت وقفة ابنائها مشهودة في ثورات ١٩٢١ ـ ١٩٢٩ ـ ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩، ومقاومة الغزوة الصهيونية في ابّان الحرب الثانية وبعدها. . . .

المناخ: بحكم موقع المدينة، في منطقة جبلية مرتفعة فإنها تعتبر من أكثر مدن فلسطين ارتفاعاً في جبال الجليل الأعلى. واقصى ارتفاع لهذه السلسلة يتجاوز ١٢٠٨م. وهذا الموقع الجبلي والمرتفع قد اعطى للمدينة مناخاً بارداً في الشتاء ومعتدلاً في الصيف. وتمتد هذه السلسلة من الشمال باتجاه الجنوب، وفيها أعلى قمة وهي (قمة الجرمق) وتقع في شمال غربي صفد. وهذه المنطقة غنية بغطاء نباتي تكثر فيه الحجارة البركانية وتحوز على خصوبة أراضي مميزة.

وبحكم موقعها الجبلي أيضاً، ووقوعها على الجانب الشرقي لحوض البحر الأبيض المتـوسط، فإنها تتمتـع بمناخ متوسطي، أي تواتر الفصول حيث يبدأ الفصـل البارد من في تشرين الأول ويستمر حتى نهاية نيسان، وتنال المدينة في فصـل الشتـاء أكثر من (١٠٠٠)مم من المطر. وتتغير درجة الحرارة بحكم هذا الطقس وبحكم الارتفاع بين ١٠ درجات تحت الصفر، إلى خمس وعشرين درجة مئـوية فوق الصفـر. وهذا مايعطي مناخاً جميلاً جداً خلال ثلاثة أرباع العام، ويسمح بنشاط زراعي وصناعي.

وتُعرف صفد بأنها مصيف رئيسي للاستجمام، وقد وصفها الجغرافيون منذ القدم بأنها محاطة بالكروم والبساتين والزيتون. ويبلغ متوسط معدل سقوط الأمطار على جبل كنعان والذي تقوم على بعض أقسامه مدينة (صفد) بين عامي ١٩٢٠ - ١٩٥٠ حوالي ٧٢٨مم، كما بلغ ماتلقاه من امطار في عام ١٩٥٩ (٦١٦)مم. وقد بلغت أقصى درجـة للحرارة على الجبل المـذكـور عام ١٩٥٩ (كـانون الثاني) (٩,٨°)، وأدنـاهـا (٤,٤°). أمـا في شهر آب فقد وصلت (٢٩,٩°) وأدناها (١٨,٤°) على التوالي[٧].



صفد منظر عام

٧ ـ عارف العارف، «النكبة، نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود»، ١٩٤٧ ـ ١٩٥٢، ج١ منشورات المكتبة العصرية (صيدا ـ بيروت).

لمحة عن تاريخ المدينة قديمًا:

إن المتأمل للمنطقة الواقعة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط يلاحظ غناها الطبيعي من نواحي عديدة. كوفرة المطر خلال موسم الشتاء مثلاً، وتكون الظروف المناخية أكثر ملاءمة للنشاط الزراعي والعيش بعيداً عن قسوة الطبيعة، إضافة للغطاء الأخضر الطبيعي، وهذه العوامل هي أحد أهم مبررات الاستقرار وقيام (المـدينة) وبالتالي (الحضارة). إضافة لكل ذلك، فإن الموقع على خطوط الهجرات من الجزيرة العربية وشرقاً من البادية، وغرباً من البحر، كل هذه العوامل تدفع للاقناع بأن هذه المنطقة مسكونة ومأهولة منذ فجر التاريخ. وهذا ما اثبتته حفريات منطقة البحر الميت وخربة البيطار وبئز المطيري والعديد من المواقع في فلسطين. . .

ومدينة صفد من مدن فلسطين الهامة بحكم موقعها الجبلي والمطلة على أهم مصادر المياه في شمال فلسطين، وهي بحيرة طبريا ونهر الأردن، ومن الغرب تشرف على البحر الذي كان مصدراً دائمًا من مصادر الحظر بحكم تردد الغزوات منه. وليس بغريب أن يربط المؤرخون بين اسم فلسطين واسم أحد الموانيء اليونانية والتي تُسمى (بـاليستـا). واختيار هذه المدينة (صفد) للاستقرار لم يكن اختيار مجموعة من الرعاة، لانهم يتحاشون الأماكن الجبلية، حيث لاتسمح لهم بممارسة مهنتهم كما يجب. وعلى الغالب أيضاً انها لم تكن من خيار الفلاحين، لأن اختيار الفلاح يتجه نحو المناطق السهلية أو المناطق التي تكون قريبة من مصادر المياه كما هو حاصل على ضفاف نهر النيل أو دجلة أو الفرات وبردى.

وهذا يجعلنا نبحث عن فئة أخرى غير بُناة الحضارة، فإما أن يكون بناة هذه المدينة من بقايا مدينة أصابها الغزو فخرج أهلها يبحثون عن الأمان والمأوى. أو أنها أقيمت بناء على مشورة العسكريين أبناء السواحل الفلسطينية، للرجوع إلى عمق البلاد بانتظار انحسار الغزو للعودة مرة أخرى للشاطىء، أو أن تكون الجبال هي قواعد للمقاومة ومناوشة الغزاة وطردهم منها فيها بعد. وهذا يعطي فكرة بأن مدينة صفد ربما تكون قد بنيت بعد قيام مدن الساحل الفلسطيني، وبروزها على

مستوى البحر المتوسط، وبروز اعداء لأهالي هذه المدن وبداية غزوات بحرية أو هجرة من الجنوب أو من الشمال.

ولكن هنالك افتراض آخر يجب ألّا يغيب عن الذهن وهو إمكانية إنشاء مدينة (صفد) كمحطة تجارية بين الفراعنة في مصر، والشام الآرامية وعراق الآشوريين إن أولى الاشارات إلى وجود هذه المدينة تعود إلى قيام ثورة حدثت بها ضد الرومان في القرن الثاني قبل الميلاد. وهذا يؤكد أن (صفد) موجودة كمدينة قبل القرن الثاني الميلادي، وحدوث ثورة قبل عشرين قرناً وذكرها في التاريخ لابد وأنه يعني بأن لها دوراً هاماً في دلك التاريخ . .

لمحة عن المدينة حديثاً:

تشير المراجع العربية الرئيسية من كتب الأعلام والرحالة والمؤرخين إلى الجغرافيين، إلى أن شهرة هذه المدينة أخذت تتسع في إبان الحروب مع الفرنجة (الصليبية) لمناعتها وتداولها بين العرب والفرنجة. إلا أنه لم ترد فيها إشارات بارزة أثناء الفتوحات الإسلامية، منها إشارة عابرة لمصطفى مراد الدباغ إلى أنها «مدينة كنعانية» فجبل كنعان هو أحد الجبال الرئيسية التي تقام عليها جزء من المدينة. دون أن يشير إلى أحداث رئيسية يرد اسمها فيها؛ وكذلك مايُستوحى من موقعها وأهميتها في إبان الامبراطورية اليونانية والرومانية. علمًا بأن بعض قراها مايزال يحمل آثاراً رومانية مثل قرية (مَدَسْ) في الشمال حيث حفلت بعض بيوتها بالأعمدة والنقوش الرومانية قبل الاحتلال الصهيوني. .

وتذكر الموسوعة الفلسطينية بأن (صفد) مدينة عربية وقاعدة قضاء يحمل اسمها وعاصمة الجليل الأعلى وأهم موقع فيه. وقد حرصت الغزوات الحربية على احتلال (صفد) تمهيداً للسيطرة على الجليل، ولم يقلّ موقعها التجاري أهمية عن موقعها الاستراتيجي، فقد كانت (صفد) محطة من محطات البريد بين الشام ومصر في عهد المماليك. وفي عهد الانتداب البريطاني كانت مقراً لادارة حكم اقليم الجليل الأعلى ونقطة تجمع لطرق المواصلات.

وتضيف الموسوعة قولها (إن نشأة مدينة صفد كانت على يد الكنعانيين في العهود التاريخية المبكرة، واسمها القديم (صفت) أي (العطاء أو الوثاق). ثم

احتلها الرومان وكان فيها قلعة حصينة، ولم يكن لها شأن عظيم في صدر الاسلام. ويعود أقدم ذكر لها إلى القرن العاشر الميلادي). وعددت الموسوعة التسلسل الزمني للاحداث التاريخية التي تعرضت لها المدينة واحتلال الفرنجة منذ عام (٦٣٦هـ - ١١٤٠م) وحتى سقوطها تحت نير الاحتلال الصهيوني في ١٩٤٨/٥/١١.

وذكر بعضهم بأن المدينة قد كُتبت باسم (صفاة) بمعنى الصخر الصّلد الأصم، سواء في الكنعـانية الآرامية أو بالعربية. ومال أهل البلدة للقول بأنها «مصفدة بالجبال» كذلك بدت لبعض المؤرخين ومنهم «العماد الاصفهاني» الذي رافق صلاح الدين الأيوبي وأرَّخ له حين قال: «وصارت لهم كالاصفاد» في معرض حديثه عن تحريرها من الفرنجة (الصليبيين).

وهنـاك فئة من المؤرخين جعلتها (بالتاء) بدلاً من (الدال) بمعنى العطاء - صفت له الشيء - أي أعـطاه إياه - ولكن العارفين بموقعها وحصانتها ولا سيما قلعتهـا، يميلون إلى القول بأنها تعني (الصخرة). ويرى بعضهم أن اليهود قد ذكروا أن بظاهرها قبوراً لعدد من الرابين حيث دفن هؤلاء بعد خراب المعبد في القرن الأول للميلاد، علمًا بأن الرحالة خلال الغزو (الصليبي) لم يشيروا إليها



صفد المدينة القديمة

كثيراً أثناء زيارتهم لمنطقة الجليل (ناصر خسروا قبل الغزو الصليبي، بنيامين التوديلي خلال الغزو)[٨].

أما الأب (أ. س. مرمرجي الدومنيكي) فقد ذكر في كتابه (بلدانية فلسطين العربية)[٩]. ما يلي: «صفد هي مدينة من جند الأردن. . متوسطة الكبر والصغر. وذكر العثماني في «تأريخ صفد» أنه كان مكانها أولاً قرية، وأصل دلك في لغتهم «العطيّة» سميت بذلك لأن الفرنج اعطتها للطائفة الدموية منهم (الداوية) لا يشاركهم فيها أحد. قال: وقد تكون سميت بذلك أخذاً من الصفد، لأن صاحب الغل يمتنع عن الحركة ويلزم موضعه، وكذلك هذا البلد وهي في جبل عالٍ لايتمكن ساكنه من الحركة في كل وقت. إن ركب تعب، وإن مشى على قدمه اختلط لحمه بدمه، لصعود الرّبوة وهبوط الوهدة، وربضها منتشر العمارة على ثلاثة أجبل. . . وبساتينها تحتها في الوادي إلى جهة بحيرة طبرية. وكل مايوجد في دمشق يوجد فيها».

ويضيف في حديثه عن مملكة صفد: «أما المملكة الصفدية فإنها مملكة متسعة. قيل أنها تشمل على ألف ومئتي قرية. ولها عدة معاملات وأعظم مدنها صفد. وهي متفرقة على ثلاث قطع. وهي عدّية وبها جوامع ومدارس ومزارات وحمامات وأسواق. وبها قلعة حصينة».

وتذكر الموسوعة الفلسطينية بأن قضاء صفد في عهد الانتداب البريطاني قد ضمّ أكثر من ستين قرية عربية وكان مجموع سكانها عام ١٩٠٨ نحو (١٠) آلاف نسمة، وضمت خلال الحرب العالمية الأولى (٤٠٠٠) بيت و(١٢) ألف نسمة. واشتملت على أحياء متعددة ثلاثة منها ممتدة على سفح جبل كنعان. وتركز السكان العرب في الجزئين الشرقي والجنوبي، وتركز اليهود في الجزء الشمالي الغربي منها. وواصل العرب جهادهم لتحرير مدينتهم من المستوطنين الصهيونيين طوال فترة الانتداب ووصل ذروته في حرب ١٩٤٨

٨ ـ سيرد ذكر هذين الرحالين بمناسبة حديثهما عن المنطقة

٩ ـ «بلدانية فلسطين العربية»، أ س مرمرجي الدومنيكي، مطبعة جان دارك ـ بيروت، لبنان ١٩٤٨. حافظنا على النص كما ورد في المصدر.

ويبدو أن الموسوعة البريطانية قد استندت في استسقاء معلوماتها عن (صفد) على الموسوعة اليهودية، فقد أوردت في المجلد العاشر (ص٨٧٠) اسم المدينة كما تُنطق بالعبرية (Safad, Safed, Safat) وقالت بأنها مدينة تاريخية في الجليل الأعلى. وتذكر أنها كانت تحوي عام ١٥٧٧م أول مطبعة يهودية بالاسلوب المتحرك وكانت مثلاً مقراً لمذهب يهودي (kobbalists) يؤمن بالتصوف (الاتحاد بالرب) وقد أضاف هذا المذهب غموضاً على الديانة اليهودية. ثم لم يلبث أن انتشر كمعتقد بين اتباع الديانة في مختلف أنحاء العالم.

وإذا مانظرنا إلى ماكتب عن هذه المدينة في المجلد الرابع عشر من الموسوعة اليهودية (صفحات ٦٢٦ ـ ٦٣٢) فأول ماتذكر بأن مدينة (صفد) ليست مذكورة في التوراة، إلا أنها تشير إليها كإحدى القمم التي كانت تعلن عن (القمر الجديد) كما تشير إلى استقرار بعض الأسر اليهودية فيها بعد خراب المعبد. وتقول بأن تاريخ المدينة غير معروف بعد الفترة التّلمودية حتى الحروب (الصليبية)، واستعادة صلاح الدين الأيوبي ثم الظاهر بيبرس لها من الفرنجة واتخاذها كمملكة إدارية في عهد المماليك.

وتشير الموسوعة إلى أن (Benuamin of Tudela) الذي زار المدينة عام ١١٧٠ ـ ١١٧١م لاحظ أن المدينة خلوٌ من اليهود. وفي عهد الاستقرار المملوكي في القرن الثالث عشر، تواجدت جالية يهودية محدودة زاد عددها نسبياً بقدوم بعض اللاجئين القادمين من اسبانيا عام ١٤٩٢م، ثم أيام الغزو العثماني عام ١٥١٦م، حتى أصبحت الجالية تتكون من السفارديم (Saphardim) والاسكانزيم.(-As hkānzım والطليان.

وتتابع الموسوعة الحديث عن تطور الجالية اليهودية في المدينة فتقول بأن العدد أخذ يتضاءل بعد تراجع النفوذ العثماني في المنطقة (مرحلة الاستقلال الذاتي في القرنين السابع والثامن عشر بالتعاون بين ظاهر العمر وبعض حكام مصر[١٠] ثم بسبب الزلزال الذي حدث عام ١٧٥٩م، والذي اختلفت الروايات حول عدد

---

١٠ ـ ستتوضح لنا هذه المرحلة لاحقاً.

ضحاياه وابتعدت عن الدقة. وتضيف الموسوعة قولها إن الهجرة اليهودية بدأت من أوربا الشرقية في أواخر القرن الثامن عشر وحلّ بعضهم في المدينة. ولذلك أقيم عدد من المستعمرات أواخر العهد العثماني وحُصنت ثم زيد عددها في إبان الاستعمار البريطاني، ولكن مع مطلع القرن التاسع عشر، هاجر بعضهم إلى القدس.

ويقول الدكتور محمد سلامة النحال[11]: «لقد استولى الصهاينة على مدينة صفد في ١٠ أيار ١٩٤٨ واستشهد من صفد يوم سقوطها (٩٩) رجلاً كانوا داخل القلعة وقد رفضوا الاستسلام فقتلهم الصهاينة عن بكرة أبيهم وكان قائدهم ممدوح البديري وهو من القدس».

«وتصم مدينة صفد اليوم أكثر من ١٥ ألف يهودي وهي خالية تماماً من العرب وتُسمى (زفات) وهي مركز قضاء المقاطعة الشمالية، ومدينة صناعية فيها مصانع للشوكولاته والقهوة والحلويات والدخان وآلات الخياطة والدراجات والمواقد والنسيج. وأهم معالمها قمة الجبل «القلعة» وهي للفنانين، والمتحف ومستشفى هداسا، وفيها محطة لمراقبة الاشعاع النووي ومركز للدراسات التلمودية»[12].

وكلمة (صفد) كإسم علم اشتهرت كإحدى قلاع الجبل عبر أحداث تاريخ بلاد الشام، وتكرر هذه الاسم لمواقع ليست لها شهرة المدينة التي نحن بصددها، فسميت إحدى قرى جنوب لبنان (جبل عامل) (صفد البطيخ) تمييزاً لها عن صفد المدينة التي اطلق عليها اسم (صفد العلي) المأخوذة إما بسبب علوها وارتفاع جبلها وقلعتها، أو نسبة الى علي بن ظاهر العمر الذي اعطيت له صفد ومنطقتها من قبل أبيه حاكم عكا والجليل. . كما أن هنالك قرية باسم (صفد) على ساحل البحر بإمارة الفجيرة من اتحاد الإمارات العربية.

---

١١ ـ فلسطين أرض وتاريخ، د. محمد سلامة النحّال، منشورات فلسطين المحتلة ـ ١٩٨١.
١٢ ـ الموسوعة الفلسطينية مادة صفد.

الفصل الثاني

الاحتلال الفرنجي (الصليبي) والعهد المملوكي

الاحتلال الفرنجي :

توزعت بلاد الشام بين نفوذ السلاجقة في الشمال والفاطميين في الجنوب، والزعامات المحلية ذات الولاءات الاجتماعية والمذهبية الضيقة في المناطق الداخلية. وهذا ماجعلها فريسة سهلة للفرنجة بعد نمو الحركة التجارية في أوروبا، والمدن الايطالية بخاصة، ثم بحثها عن أسواق وطرق جديدة. وبدأ الصدام مع الاحتلال الأوروبي لبلاد الشام ومصر كحركة استعمارية، بعد ازدهار تجارة المدن وتنافسها وظهور الطبقة الحاكمة وحلفائها من التجار. ووجدت في النوازع الدينية واستغلال مشاعر البسطاء ما يساعدها على تعبئتهم للحرب دينياً، بزعم هدف تحرير الأماكن المقدسة مع أنهم بدأوا بالأراضي التركية ثم في انطاكية، واظهروا عناية خاصة بمصر مع أن الأماكن المقدسة تقع في القدس، كما هو معروف.

واستطاع هؤلاء الفرنجة بين (٤٩١ ـ ٥١٨هـ، ١٠٩٨ ـ ١١٢٤م) من احتلال أهم المدن الساحلية، بدءاً من انطاكية في الشمال حتى حيفا وبيت المقدس في الداخل، على رغم محاولات المقاومة التي أبداها السلاجقة والفاطميون. ولقد تمكّن أحد تابعي الدولة السلجوقية وهو (عماد الدين زنكي) أن يتصدى للفرنجة بعد أن وحّد شمال بلاد الشام والعراق واستطاع ابنه (نور الدين محمود) من بعده،

أن يضم دمشق كما أنـه انتهـز فرصة خلاف وزراء آخر خليفة فاطمي في مصر (العـاضـد لدين الله) وأرسل قائده (شيركوه) الذي استطاع الانتصار على أحد الـوزيرين عام ٥٥٩هـ ـ ١١٦٤م، ولم يلبث هذا الأخـير أن استعان بالفرنجة لإخـراج شيركوه من مصر. وحين حاول العودة، تصدى له الحلف الجديد مع الفرنجة عام ٥٦٢هـ ـ ١١٦٧م، مما اضطر نور الدين محمود إلى تجهيز حملة ودعم قائده بإمرة أخيه (صلاح الدين) ٥٦٤هـ ـ ١٦٦٩م، الذي استولى على السلطة بعد وفاة قائده شيركوه[1].

وطلب نور الدين محمود من واليه عام ٥٦٧هـ ـ ١١٧١م أن يدعو للخلافة العباسية بدلاً من الفاطميين. وبرزت جبهة جديدة تضم مصر والعراق إلى جانب بلاد الشام، وورث صلاح الدين الأيوبي مملكة سيّده بعد وفاته. فاستولى على دمـشـق عام ٥٦٩هـ ـ ١١٧٣م ثم مدن حمص وحمـاه وحلب عام ٥٧٠هـ ـ ١١٧٤م. وتفرغ للاعداد لمهاجمة الفرنجة بدعوة جميع البلدان تحت سيطرته للجهاد.

صلاح الدين الأيوبي وفتح صفد:

بعد أن تم للفرنجة احتلال مدن الساحل الرئيسية وبيت المقدس، اهتموا بحماية الطرق الداخلية حيث السهول الوسطى وبلاد الشام فأوجدوا سلسلة قلاع ومـواقـع خصبـة، اشتهـرت منهـا قلعة الشقيف في جنوب لبنان، وبانياس في الجولان، وكوكب الهوى في جنوب بيسان، ثم قلعة صفد. وقد بدأ الأمير فولك (Fulk of Anjou) ببناء القلعة على تلة صفد منذ سنة ١١٤٠م، لتكون واحدة من سلسلة القـلاع التي تحمي طريق السهول الوسطى في بلاد الشام وأسكن فيها فرسان الداويّة.

بعـد فتـح طبريا عام ٥٨٣هـ ـ ١١٨٧م، سارع الصليبيون إلى نجدتها وكانت موقعة (حطين) الشهيرة التي انتهت بهزيمة الفرنجة ووقوع أكثر قادتهم في

---

١ ـ (الكامل). ابن الاثير، ج ١١، ص ٣٤٢

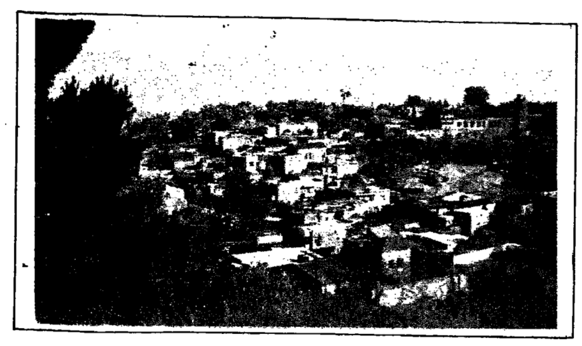
الأسر، ممامهد الطريق لاستعادة مدن الحصون الرئيسية مثل: عكا، نابلس، حيفا، قيسارية، صفورية، الناصرة، بتنين، الشقيف، صيدا، وعسقلان تمهيداً لتحرير بيت المقدس الذي تم في العام نفسه.

ثم زحف صلاح الدين الأيوبي في رمضان من عام ٥٨٤هـ - ١١٨٨م إلى قلعة صفد لتحريرها، ومن جملة أحياء المدينة حي يُسمى (الصواوين) ويروق لابناء البلدة أن يعزوا هذه التسمية الى المكان الذي نصب فيه صلاح الدين خيامه (الصواوين) أثناء حصار القلعة الواقعة على تلة صفد الرئيسية والتي شهدت معظم أحداث المدينة وتاريخها.

وكانت القوات التي أرسلها صلاح الدين بقيادة (مسعود السلطي)[٢] ثم الحقها بخمسمائة فارس بقيادة (طغرل الجاندار) ثم رأى أن يقود الحصار بنفسه، فجاء من دمشق وقطع مخاضة الأحزان (جسر بنات يعقوب)، ونزل على صفد وأشرف على نصب المناجيق، ولم يزل القتال على صفد متواصلاً حتى سلمت بالأمان في الرابع عشر من شوال من تلك السنة. وتم إخراج الفرنجة من مدينة صفد باتجاه مدينة صور. ثم استعاد الكرك والشويك في الجنوب، وكوكب الهوى في الشمال. وإثر تحرير بيت المقدس، وجّه الفرنجة الاستغاثة إلى اوروبا طلباً للنجدة، التي تجمعت في صور، وتمكنوا من احتلال عكا بعد حصار دام ثلاث سنوات وعقدت هدنة بين الطرفين. ولكن لم يمضِ وقت طويل على غياب صلاح الدين حتى دب الخلاف بين ابنائه في البيت الأيوبي مما اتاح الفرصة لاخيه (العادل) لوراثة السلطة ثم توزيعها بين ابنائه. ولكن بعد وفاة هذا الاخير تجزأت الدولة إلى إمارات متنازعة يتحالف بعضها مع الفرنجة الذين تمكنوا من إعادة احتلال المناطق التي حررها صلاح الدين. وما كان من (الصالح اسماعيل) إلا أن كاتب الفرنجة وتنازل عن قلعة صفد وبلادها، وقلعة الشقيف وبلادها، ومناصفة صيدا وطبريا واعمالها وجبل عامل، وسائر بلاد الساحل.

---

٢ - في صفد عائلة بهذا الاسم ولا نعرف مدى صلة النسب والعلاقة..



صفد منظر عام

الفترة المملوكية:

المماليك والظاهر بيبرس وتحرير صفد ثانية:

قفز المماليك إلى السلطة في مصر وبلغ نفوذهم حتى نهر الأردن وغزة والقدس والساحل. بينما بقيت بلاد الشام تحت نفوذ الأيوبيين. وبعد احتلال المغول بقيادة (هولاكو) لبغداد عام ٦٥٦هـ وانهاء الخلافة العباسية، انصرفوا إلى بلاد الشام، ولم يستطع الايوبيون الوقوف في وجههم، والتفتت الانظار إلى القوة الجديدة في مصر مع مطلع عهد المماليك، الذين استطاعوا أن يهزموا المغول في المعركة التاريخية (عين جالوت) في فلسطين عام ٦٥٨هـ ـ ١٢٦٠م، مما مهد الطريق لاعادة وحدة مصر وبلاد الشام، والتفرغ لمواجهة الفرنجة حيث تمكن المماليك من تحرير بلاد الشام وتقسيمها إدارياً إلى ممالك منها مملكة صفد عام (٦٦٤هـ ـ ٦٩٠هـ) (١٢١٦ ـ ١٢٩١م).

كان المماليك من محترفي العمل العسكري، فجرت العادة على شرائهم في سوق الرقيق من ترك وشراكسة وأرمن وروم وروس. ولم يلبثوا أن انتجوا فئة اجتماعية تستأثر بأعمال الجندية القادرة على استلام السلطة؛ وإن كانت مضطرة

لتعلم أصـول اللغـة والـدين، وحمل شعاره إيماناً أو غطاء. وقد برز من هؤلاء (الظاهر بيبرس) الذي بدأ قائداً عسكرياً لدى الأيوبيين لمع اسمه بعد أن حقق انتصاراً على الفرنجة في موقعة (المنصورة) عام ٦٤٧هـ.

ثم توج بالشهرة بعد موقعة (عين جالوت) قرب بيسان، حيث تم له دحر التتار وجيوش المغول أواخر شهر رمضان عام ٦٧٨هـ - ١٢٦٠م، بعد أن احتل المغول بغداد وانهوا فيها الخلافة العباسية وعاثوا فساداً واحتلالاً وغزواً في العراق وشمال بلاد الشام، وزحفوا جنوباً حيث تصدى لهم الظاهر بيبرس؛ وعينه على السلطة الأيوبية في الكرك التي تطمح بالعودة لحكم مصر، بالإضافة الى الفرنجة الذين يحكمون سيطرتهم على الساحل.

ولقد استولى الظاهر بيبرس على السلطة بعد قتله (قطز) بالاتفاق مع قادة الجيش، ثم انصرف إلى تخليص البلاد من الفـرنجة. واختار (بيبرس) الحلقة الاضعف في التصـدي لاعـدائه من الفرنجة ولا سيما بجانب الساحل، وبقايا البيت الأيوبي، فتخلص من (عمر بن العادل) ملك الكرك والشوبك. وكان يأخذ بعين الاعتبار خطر امكان التحالف بين الفريجة والمغول الذي جرت عدة محاولات لعقده، ولا سيما في إبان تصاعد القوى المملوكية وتوحيد مصر وبلاد التام. كما كان يأخذ بعين الاعتبار تعاون بعض الحكام المحليين مع أحد هذه الاطراف من أعداء البلاد.

بعد أن تم للظاهر بيبرس فتح قيسارية، آرسوف، حيفا، وعتليت وإشادة قلعـة قانـون، تطلع إلى صفـد التي قال عنهـا المؤلف ابن عبد الظاهر في كتابه (الروض الزاهر): «اهتم السلطان بأمر صفد لانها الغصة في حلق الشام والشجا في صدر الاسلام». وذلك كإشارة لموقعها الاستراتيجي. وبدأ بالانسحاب من عكا التي يحاصرها، والتي كانت من أعتى مواقع الصليبيين يقيم فها جماعة بين الـداويّة أو (جمعية فرسان المعبد) وهي فرقة تتصف بالتعصب الديني وبالالتزام العسكـري، واتخذت من الصليب الأحمر رمزاً لها وتتألف من الفرسان والصفوة ورجال الدين واشتركت بجميع الحروب.

عاد السلطان عام ٦٦٤هـ ـ صيف ١٢٦٦م من مصر باتجاه بلاد الشام وقاد بنفسه القوات لمحاصرة عكا، بعد أن أرسل مجموعة من عساكره إلى حمص ليرد الفرنجة المهاجمين من طرابلس. وتتابعت سلسلة هجمات جنوده على المواقع الصليبية على طول الساحل. ولما كانت عكا تصعب على الفتح رغم محاصرتها، فقد اتجه إلى صفد لقربها منها ولأنها لا تقل أهمية عنها وأرسل مجموعة من الجنود لمناوشة قلعة الشقيف لصرف النظر عن قصده الحقيقي، وطلب إلى نوابه حشد قواتهم حول صفد. وكانت دمشق عبر التاريخ المملوكي والعثماني موطن السلاح والتعبئة البشرية. ولما وصلت المناجيق إلى ضواحي صفد، جاءت رسل الصليبيين من يافا وصور وبيروت تطلب الأمان، إلا أن السلطان قام بمهاجمة بانياس ورد الرسل رافضاً طلبهم.

وكان الفرنجة قد اعتادوا تحصين المدينة وقلعتها حين تسلموها من حوالي ربع قرن من الصالح اسماعيل الأيوبي حاكم دمشق عام ٦٣٨هـ ١٢١٠م. ولما تكاملت قوى مصر وبلاد الشام، أخذ السلطان يتجول بين المقاتلين يثير هممهم بحوافز مختلفة ويهيء الخيام والحاجات التموينية والطبية. وقام بعدة هجمات خلال اسبوعين من صيف ذلك العام (تموز/شوال). وفي الهجوم الرابع اقتحمت قواته القلعة وطلب الفرنجة الأمان. ووعد السلطان بالعفو عن المستسلمين إذا لم يصحبوا سلاحهم معهم ولم يقوموا باتلاف المؤن والذخيرة. وقيل بأنهم خالفوا الشروط ودفعوا بعض أسرى المسلمين على أساس أنهم من الفرنجة مما جعل السلطان يأمر بقتلهم.

وفي رواية أخرى وردت في كتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» للمقريزي أن السلطان لجأ للحيلة في إعطاء الأمان، وذلك بأن جعل من أحد أمرائه يقوم بدور السلطان. وأعلنت المدينة بعد فتحها نيابة من نيابات الشام، وتم تعيين نائب للسلطان في البلدة وآخر في القلعة، ومسؤولاً عسكرياً، كما حشد لها سكاناً من دمشق، وأمر ببناء مسجدين الأول في القلعة، والآخر في البلدة.

إعادة عمران القلعة :

على عكس إجراءات الظاهر بيبرس في الحصون والمدن الساحلية التي حررها والتي سرعان ما كان يلجأ إلى هدمها بل وإلى مساواتها بالأرض بعد فتحها، خشية أن يعود إليها الفرنج من البحر (الطريق التقليدي من أوروبا الغربية)، فإنه بعد أن وزع الغنائم على امرائه واسمعهم لطيف كلامه واعتذاره عن عدم لينه معهم اثناء القتال، فإنه قام بتموين القلعة بالسلاح والمؤونة ومختلف الحاجات، وضرب مثلاً أمام حاشيته وجنوده بما حمل على كتفه، ووزع الأعمال لحفر الخندق وبناء السور وغير ذلك من الأمور[٣].

وقد اتخذ السلطان صفد قاعدة يستنفر منها رجال جبال نابلس والخليل والقدس في تعكير أمن من تبقى من الفرنجة. وكان يعود إليها من قاعدة الاسناد ومركز السلطنة في (دمشق)، حيث كانت تأتي وفود الصليبيين من بيروت وصور والمرقب وحصن الأكراد في شمال بلاد الشام طمعاً بتحديد الهدنة فوافق السلطان على أن تكون مدتها عشر سنوات، وعشرة أشهر، وعشرة أيام وعشر ساعات. واستمرت صفد قاعدة مملوكية يعتمد عليها وتذكر عساكرها في حالة النفير والتصدي للفرنجة إلى جانب دمشق وطرابلس.

وقد بدا تأثير تحرير صفد وقلعتها سواء في متابعتها الفتوحات أو في التصدي لهجمات الفرنجة، فبعد أن عاد السلطان الظاهر بيبرس إلى مصر مركز السلطنة، لم يلبث أن غادرها إلى بلاد الشام وقام بفتح يافا عام ٦٦٦هـ - ١٢٦٨م، وحتى يتم له فتح قلعة الشقيف الشهيرة[٤]، مرّ بصفد ليتزود بالسلاح وآلات الحرب والحصار اللازمة، فاضطر الفرنجة إلى الاستسلام وطلب الأمان. وجعلها مركز ولاية تابعة للمملكة الصفدية بعد أن عيّن فيها قاضياً وخطيباً.

---

٣ ـ ورد لدى المقريزي في (السلوك) وابن عبد الظاهر في (الروض الزاهر).

٤ ـ لمع اسم القلعة ذات المناعة الطبيعية في بطولات الثورة الفلسطينية ومقاومتها للغزوات الصهيونية. طوال النضال الفدائي ولا سيما ١٩٧٨ و١٩٨٢ وتقع في جنوب لبنان وبعض الصحف الغربية تدعوها بالاسم الصليبي (Beafourt).

صفد في العهد المملوكي: [*]

توفي الظاهر بيبرس ودفن في دمشق، وتوزعت البلاد في ممالك شتى تخضع للسلطان في مصر، الذي يأمر بتعيين نوابه فيها، تاركاً لهم الاستقلال الذاتي في الادارة والقضاء والعسكر والجباية. ومنذ مطلع القرن الثامن الهجري حتى مطلع القرن التاسع، قام سلاطين مصر بتعيين عشرات النواب في صفد الذين سرعان ما يتم حنول خلفهم تبعاً لوشاية أو تمرد أو تجاوز. ولدى استعراض نماذج من أسماء هؤلاء، تلمس أن أكثرهم من المماليك وتغلب على أسمائهم العجمة. وكانت الوظائف الرئيسية في مملكة صفد، نيابة البلدة ونيابة القلعة ووظيفة الخازندار أو الكاتب، وقائد الطبلخانة، أو المئة أو الألف.

في عام ٦٦٩هـ - ١٢٧٠م بدأ الفرنجة في التعدي على مناطق من المملكة الصفدية (في منطقة الشاغور وحيفا) وذلك بعد وصول حشودهم من انكلترا إلى عكا، فقام الظاهر بيبرس بالهجوم على عكا مما اضطر الفرنجة إلى طلب هدنة وافق عليها السلطان حتى يتمكن من الخلاص من التحالف الصليبي المغولي.

ثم تابع خلفاء الظاهر بيبرس خطته في تحرير بلاد الشام من الفرنجة، ولاسيما القلاع الحصينة في طرابلس وعكا، فتم فتح الأولى عام ٦٨٨هـ - ١٢٨٩م، وكان لفتحها أثر معنوي كبير مهد الطريق لفتح عكا ٦٩٠هـ - ١٢٩١م، بعد نقض الهدنة من قِبل الفرنجة في كلا المدينتين. وضمت صور وعكا وحيفا وعتليت إلى مملكة صفد، بينما الحقت صيدا وبيروت بمملكة دمشق[٦]

وقد حاول مؤرخو العهد المملوكي رسم حدود واضحة للمملكة الصفدية ويبرز هناك شبه إجماع على مناطقها وحدودها وإن ابتعد التحديد عن التطابق لدى جميع المؤرخين. ويعود سبب ذلك إلى فقدان القياس الدقيق المتعارف عليه حديثاً، أو إلى بعض التداخلات والتغييرات الطفيفية أحياناً. وقد أجمع هؤلاء على حدود المملكة الادارية في ذلك العهد كالتالي:

---

٥ - المصدر الرئيسي الحديث للمعلومات عن هذه الفترة ماجمعه السيد طه ثلجي الطراونة في كتاب (مملكة صفد) في عهد المماليك وطبع عام ١٩٨١ وهو عبارة عن أطروحة جامعية.

٦ - ابن تغري بردي، النجوم ج١ ص ٩.

شمالاً : من الحوض الجنوبي لمجرى نهر الزهراني الذي يصب في البحر المتوسط جنوب صيدا ثم يستمر إلى مرجعيون جنوباً.

غرباً : البحر الأبيض المتوسط.

شرقاً : من شرق مرجعيون حتى نهر الحاصباني ومن مجرى نهر الاردن حتى جسر الصنوبرة.

جنوباً : من الأطراف الجنوبية لمرج ابن عامر ثم غرباً وجنوباً حتى شاطىء المتوسط.

ولايات المملكة الصفدية في العهد المملوكي:

من المصادفات النافعة أن يقوم بعض المؤرخين المعاصرين للأحداث، بالالتفات إلى تسجيلها وتناولها من جوانب مختلفة، اقتصادية، سياسية، واجتماعية وإدارية. وهذا ما افادنا ببعض المعلومات التي لابد من الحكم عليها وفق المنهج العلمي للتأريخ وملاحظة مدى أثر العنصر الذاتي حين الكتابة عن السلطان في ظلّه، وما أكثر هذه الشواهد التي ضمنتها كتابات مؤرخي هده الحقبة وفي مقدمتهم: القلقشندي، صلاح الدين الصفدي، القاضي العثماني، وشيخ الربوة الدمشقي، وغيرهم. مع الأخذ بعين الاعتبار للتعديلات الادارية التي قد تجري في ظل أوضاع سياسية كعهد المماليك، وحدود الرضى والغضب على ولاتهم ونوابهم أو مجرى الأحداث في الصراع مع الصليبيين والمغول. وسنقتصر على ذكر الولايات الرئيسية وهي:

١ ـ بر صفد: (الزنّار)؛ المحيط المحيط بالبلدة من القرى المباشرة والأقرب اليها، وقد استمرت حتى النكبة مع تسمياتها نفسها، وتشمل القرى التالية: (نزح معظم ابنائها إلى بلاد الشام المجاورة في سورية، لبنان، الأردن، وأصبحت الأجيال اللاحقة تنسب نفسها إلى المدينة عزوفاً عن ذكر تفصيلات من أسماء القرى الصغيرة التي لايعرفها المعاصرون): بيريا ـ عين الزيتون ـ ظاهرية الفوقا ـ ظاهرية التحتا ـ عكبرة ـ الجاعونة ـ فرعم ـ عمونة ـ جب يوسف ـ الجش ـ قاديتا ـ تليل (طليل) ـ انبيت ـ دلاته ـ دبشوم ـ الحسينة ـ رأس الأحمر ـ صفصاف ـ طابغة ـ

طيطبا ـ علمانية ـ فارا (فارة) ـ قبونية ـ قابون كفر برعم ـ كفر عجيلة ـ كفر ماروس ـ منظمية ـ منار الخيط ـ معيصرة ـ ملاحصة ـ مسيرون ـ تبرانية ـ منية .

٢ ـ ولاية تبنين وهونين :

تقعان حالياً في لبنان وهما عبارة عن قلعتين بناهما (الصليبيون) عام ٥٠٠هـ ١١٠٧م، والحقتا بمملكة صفد بعد فتح السلطان الظاهر بيبرس لهما. كما وردت اسماؤهما مرات عديدة أثناء الحروب مع الفرنجة. وتبعد تبنين حوالي ٢٠كم شرق صور، وعلى طريق صور ـ بانياس ـ دمشق. أما هونين فهي مقابلة لبانياس شرق جبل عامل. وللولاية حوالي ٣٢ قرية بين فلسطين ولبنان حالياً.

٣ ـ ولاية صور :

استمرت ولاية صور في حوزة الفرنجة ـ حتى تحريرها عام ٦٩٠هـ. وقد قام المماليك بتدميرها خشية عودة الفرنجة إليها لكونها على البحر، ولم يعد بناؤها حتى فترة متأخرة من العهد المملوكي. ويتبع لهذه الولاية حوالي ٢٧ قرية بين فلسطين ولبنان حالياً.

٤ ـ ولاية الشقيف :

وقد كانت قلعة حصينة وقاعدة للنضال الفلسطيني ـ اللبناني ضد الاحتلال الاسرائيلي بناها الفرنجة عام ١١٣٥م وحررها صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٦هـ ـ ١١٩٠م، واعادها الصالح اسماعيل صاحب دمشق للفرنجة عام ٦٣٨هـ. ثم حررها الظاهر بيبرس ثانية عام ٦٦٦هـ ـ ١٢٦٨م، والحقها بالمملكة الصفدية. ويلغ عدد القرى التابعة لها آنذاك ٣٤ قرية، مازالت معظمها حتى الآن وتعرضت مرات عديدة للغزو الصهيوني.

٥ ـ ولاية الاقليم :

وقد اقتطعت من ولاية الشقيف شرق مرجعيون بين الليطاني وبانياس ويتبعها حوالي ١٢ قرية اشتهرت حديثاً بنضالها ضد الغزو الصهيوني.

٦ ـ ولاية عكا :

خضعت المدينة عام ٤٩٧هـ ـ ١١٠٤م للفرنجة وأصبحت قاعدتهم

الرئيسية عسكرياً، وتجارياً واستطاع صلاح الدين الأيوبي اعادتها بعد موقعة حطين عام ٥٨٣هـ ـ ١١٨٧م. ثم اعاد الفرنجة احتلال المدينة عام ٥٨٧هـ ـ ١١٩١م. وأعـاد تحريرهـا السلطـان الأشـرف خليـل بن قلاوون عام ٦٩٠هـ ـ ١٢٩١م، والحقهـا بالمملكـة الصفـدية وكان الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان قد أمر بترميمها. وتضم الولاية ٢٧ قرية.

٧ ـ ولاية الشاغور:

وقـد حدّدها القلقشندي بأنها كورة بين عكا وصفد والناصرة «بها قرى متسعة، وليس لها مقر ولاية معروف» وتضم ٢٩ قرية.

٨ ـ ولاية الناصرة:

استـطاع الـظاهـر بيبرس استعـادتهـا عام ٦٦١هـ ـ ١٢٣٦م من حكم الفرنجة، وكان يصفها الرحالة بأنها قرية كبيرة أقرب إلى المدن ضمن مملكة صفد وتضم ٩ قرى.

٩ ـ ولاية عتليت:

تقع على شاطىء البحر جنوب حيفا بحوالي ٢٠كم، وعرفت باسم (الحصن الأحمر) وعادت إلى العرب عام ٦٩٠هـ ـ ١٢٩١م، بعد فتح عكا. وقد قال عنها المؤرخ القلقشندي «بأنها من ولايات مملكة صفد، بين قانون في الجنوب وعكا في الشمال، وبها قرى متسعة وليس لها مقر ولاية». وكانت تتبعها ١٨ قرية وبلداً أهمها حيفا.

١٠ ـ ولاية مرج ابن عامر:

واشتهـر بها مركـزان أحدهما في الشمال «اللجون» والثاني جنوباً «صنين» وتضم الولاية ٢٤ قرية.

١١ ـ ولاية طبريا:

استعادها صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٣هـ ـ ١١٨٧م، من حكم الفرنجة قبـل موقعـة حطين، وأعـادها إليها الصالح اسماعيل عام ٦٣٨هـ ـ ١٢٤٠م. وكـانت قد خضعت للمغـول عام ٦٥٨هـ ـ ١٢٦٠م. وبعد تحرير صفد أعيد تعميرها وتضم ٢٩ قرية.

ومن الجدير ذكره أن قرى المملكة الصفدية استمرت تحمل اسماءها حتى العهد العثماني، كما برزت تلك القرى في أول مسح لها أثناء الانتداب البريطاني وقبل الاحتلال الصهيوني الذي غيَّر كثيراً فيها. ومع ذلك، فقد حافظت بعض قرى الجليل على الاسماء العربية حتى الآن بما فيها تلك التي أجلي السكان عنها عنوة.

أهم أحداث الملكة الصفدية في الحقبة المملوكية:

التصدي للغزوات الخارجية:

إن الطبيعة الجغرافية الوعرة والاستقلال شبه الذاتي الذي تسنده قلعة صفد وموقع المدينة المتميز آنذاك، بالاضافة إلى النظام السياسي والبنية الاقتصادية، والتشكيل الاجتماعي للسكان، والأقليات التي عسكرها الحكام، إلى جانب العوامل المحلية والقومية، ثم العوامل الخارجية المؤثرة، وبعد السلطة المركزية للسلطان في مصر؛ كل ذلك قد خلف آثاراً من حركات التمرد أو الولاء عبر الحقبة المملوكية، أما الأثر الايجابي الرئيسي فهو مشاركة البلدة (صفد) في الحروب ضد الفرنجة، واعتبارها سنداً عسكرياً للفتوحات، أو رد الغزوات إلى جانب عساكر بلاد الشام في الفترة مابين إقامة ممكلة صفد عام ٦٦٤هـ - ١٢٦٦م حتى عام ٦٩٠هـ - ١٢٩١م سنة طرد الفرنجة نهائياً، كذلك الإسهام في مقاومة تيمورلنك وفي فتح جزيرة قبرص.

ففي عام ٧٩٦هـ - ١٢٩٣م، أسهم نائب صفد الأمير (أرغون شاه الابراهيمي) إلى جانب نواب المماليك في بلاد الشام، في حماية حلب من تهديدات تيمورلنك باحتلالها. وأعيدت الكرة ثانية عام ٨٠٣هـ - ١٤٠٠م، حين التحق نائب صفد الأمير (الطبنغا العثماني) بزملائه نواب ممالك بلاد الشام الذين توجهوا ثانية إلى حلب، إلا أن تيمورلنك استطاع أن يأسرهم هذه المرة، وأن يهزم عسكرهم وزحف باتجاه دمشق[٧] هادفاً إلى احتلال مقر السلطان في مصر.

---

٧ - السلوك، المقريزي، ج٣، ص ١٠٣١ - ١٠٣٥.

وفي عام ٨٢٧هـ ـ ١٤٢٤م، أسهم نائب صفد (الأمير سيف الدين مقبل الروحي) في تجهيز سفينة حربية مع العمارة المصرية لفتح قبرص إلى جانب السفن الشامية. وفي عام ٨٣٦هـ ـ ١٤٣٢م، اشترك نائب صفد (مقبل الرومي) مع أمراء الشام ومصر في غزوة إمارة (الشاه البيضاء). أما عام ٨٧٠هـ ـ ١٤٦٥م، فقد اسهمت المملكة الصفدية بقيادة (الأمير ازدمر الطويل) في القتال ضد (شاه سرار) الطامع بحلب والعاصي على السلطان في مصر. أما في معركة مرج دابق عام ٩٢٢هـ ـ ١٥١٦م، فقد شاركت عساكر المملكة الصفدية في جملة التجريدة المملوكية التي تصدت للسلطان العثماني سليم الأول، حيث قتل نائب المملكة الأمير (طار باي) في هذه المعركة. [٨]

كان عدد اليهود في سنجق صفد (مملكة صفد سابقاً) لايتجاوز (١٩٦٥) شخصاً عام ١٥٢٦م أي في العهد المملوكي، من مجموع السكان الذين بلغ عددهم (٣٢٢٠٠) فرداً أي بنسبة (٦٪). ولم يرد ذكر لنشاط اليهود في هذه الحقبة، سوى إشارة عابرة لدى (شيخ الربوة الدمشقي) عن مزار قرية (ميرون). ولم يزد عددهم نسبياً إلا بعد عام ١٤٩٢م، بسبب هجرة عدد منهم من إسبانيا والبرتغال إثر سقوط غرناطة وتحريض الكنيسة الكاثوليكية ضد اليهود والمسلمين. وقد كانت الأكثرية من اليهود المستعربين الذين يتحدثون العربية ويشاركون في التقاليد ويعملون في الحرف والصناعات الشائعة آنذاك.

كما أن المماليك قد أتوا ببعض القبائل والسكان من المغول والأكراد والتركمان والاتراك والشراكسة من الموظفين والاجناد الذين استقروا في قرى محدودة. أما الذين سكنوا في المناطق الحضرية فقد اختلطوا بالسكان وذابوا في المجتمع الكبير. وهنالك حي كبير في مدينة صفد اشتهر باسم (حارة الاكراد) دون أن نلمس أثراً عرقياً أو لغوياً أو ثقافياً قبل النكبة...

وتوزع السكان بين حضر يسكنون المدن والبلدان والقرى المنتشرة في المملكة الصفدية وينزعون نحو الاستقرار ويعملون في الفلاحة والحرف والتجارة

---

٨ ـ مفاكهة الخلان، ج١ ص٣٥٠.

والصناعة، وبين عشائر عاشت حياة البداوة وكانت تنزع إلى التمرد حين تحين الفرص، واستمرت في حياتها البدوية حتى يوم سقوط المدينة . . .

البناء الاقتصادي والاجتماعي في مملكة صفد في العهد المملوكي:

النظام شبه الاقطاعي:

سمة الاقطاع في مصر وبلاد الشام في هذه الحقبة لها جذور سابقة على هذا العهد، بل وتعتبر موروثة في معظمها من العهد السلجوقي والزنكي والايوبي، وحتى إلى ماقبل هذه الفترة، أي في أواخر العهد العباسي، بالاضافة الى توزع الدولة العربية إلى دويلات تفتقر إلى المركزية السياسية. وكان التقليد أن توهب الاقطاعات للأمراء ومقدمي العساكر عوضاً عن الراتب المحدد لقاء الخدمات العسكرية.

والنظام الاقطاعي بهذا المفهوم، يختلف عن نظيره الأوروبي بأنه كان يشمل الناتج ولايعني حق امتلاك الأرض[٩]. بل ولقد ورث هؤلاء السلاطين بعض الاساليب المصرية القديمة في حصر الارض وتحديد درجة خصوبتها ونتاجها تمهيداً لتحديد خراجها، بل أن كلمة (الروك) القبطية استمرت حتى عهود متأخرة وهي تعني (مسح الأرض وتثمينها وفق درجة خصوبتها ثم تسجيل ذلك) وقد جرت عدة عمليات من هذا القبيل أيام بعض السلاطين المماليك في عمليات تاريخية متباعدة نسبياً. ورافق تحرير المناطق من سيطرة الفرنجة أن بدأت عمليات الاقطاع مع بدء هذا العهد، إذ سرعان ما كان يلجأ السلطان إلى توزيع الأراضي على الأمراء والاجناد بالاضافة الى القرى أيضا، كما لمسنا بعد فتح عكا وصفد مثلاً . . . وذلك لقاء الخدمات العسكرية. ومن شروط الاقطاع أن تكون المناطق موزعة جغرافياً منعاً لتوريثها وبأنها ليست ملكاً شخصياً بل أجراً مقابل خدمة. وفي حال غضب السلطان على أمير أو نائب أو قائد عسكر وعزله، كانت تُسحب اقطاعاته أيضاً.

٩ـ مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، عبد العزيز الدوري، دار الطليعة ـ بيروت ١٩٦٩.

أما زعماء العشائر وشيوخها فقد كانوا يحصلون على بعض الاقطاعات لقاء التعهد بحفظ الأمن أو تقديم تجريدات عسكرية أو التصدي لتمرد خارج عن إرادة السلطان. ولم يقتصر حق الاقطاع على السلطان وحده، بل كان للنواب والأمراء ايضاً حق ممارسة هذا الأجراء في حدود صغيرة.

التمليك:

قام السلطان الظاهر بيبرس باجراءات تمليك إثر نشوة الانتصار في تحرير (قيسارية) وأرسوف، وصفد، وتقديراً لجهاد بعض الأمراء من المماليك ولا سيما الذين قسا عليهم أثناء التعبئة والحملات العسكرية، «فقد أمر بكشف هذه البلاد وعمل متخصصها، فعملت بذلك أوراق وطلب قاضي دمشق وعدوله ووكيل بيت المال بها، وطلب السلطان منهم أن يملك الأمراء المجاهدون من البلاد التي فتحها الله عليه، وتبقى للولد منهم، وولد الولد ومايدوم إلى آخر الدهر ويبقَ إلى الأبد»[١٠].

ويبدو أن هذه الأراضي التي اغتصبها الفرنجة، قد توزعت على الحاشية وساءت حالة الفلاحة في ظل هذه الاقطاعات كغيرها من النظم الاجتماعية الاقطاعية التي تستغل عرقهم وتحرمهم التمتع بخيرات كدهم وتعبهم.

الأوقاف:

أثرت طبيعة الصراع مع الفرنجة من ناحية، والنزاع الداخلي وكثرة الحروب والنزح والبعد عن الاستقرار، على ترك مساحات شاسعة من الاملاك بعيداً عن الملكية الخاصة وجعلها وقفاً خيراً أو ذرياً. فقد بدأ الظاهر بيبرس الذي أراد تحرير صفد عام ٦٦٤هـ - ١٢٦٦م التقرب من الرعية والاعتراف بشكر الله، بتخصيص أوقاف عدة على مزارات الاماكن المقدسة من أسماء الأنبياء والأولياء الصالحين والصحابة. وبعد فتح عكا قام (خليل بن قلاوون) عام ٦٩٠هـ - ١٢٠١م، بتخصيص قرى وقفاً عن قبر أبيه، وقد أوضحت نتائج المسح العثماني عدداً كبيراً من الأوقاف.

---

١٠ - السلوك، المقريزي، ص ٥٣٣.

الثروة الزراعية :

كان لمناخ البحر المتوسط وتباين التضاريس وتنوع التربة في المملكة الصفدية والاعتماد الرئيسي على الامطار ونظام الانتاج الزراعي الموروث منذ العهد الروماني والنظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي، كان لكل ذلك عوامل مؤثرة على نوع الانتاج وكمياته وتسويقه وتوزيعه. فالحبوب ولا سيما القمح، أضحى غذاء البشر، والشعير كعلف للحيوان ثم القطاني (العدس، الحمص، الكرسنة) والسمسم والرز والقطن وقصب السكر والزيتون وأشجار الفاكهة المعروفة في الشام من عنب وتين وتفاحيات ولوزيات ثم الخضراوات المختلفة ولا سيما البصل والفجل والقثاء والبطيخ الأصفر والخس، أما البابير (الحلفا) فقد كان يزرع حول بحيرة الحولة ويستعمل في صنع الحصير. ومن الغابات البرية الأشجار الحرجية ومنها اشتهرت أنواع البلوط والسنديان والصنوبر، وكان اسلوب الزراعة يتم بإراحة قسم واستغلال القسم الآخر للزراعة كل حول، وكذلك المنتوجات الشتائية والأخرى الصيفية.

الثروة الحيوانية :

إلى جانب ذكر فواكه الشام، أتى القلقشندي على ذكر أهم الحيوانات والطيور التي تكاثرت في المنطقة وورد ذكرها في مؤلفات عدد من المؤرخين والرحالة وكتاب الدواوين. وقد اشتهرت أنواع الحيوانات المستعملة غذاء أو ركوباً، أو لصناعة الصوف من إبل، وخيل وبغال وحمير، وغنم ودواجن منها الأوز والحمام والدجاج. وكانت الجواميس البرية موجودة في سهل الحولة وسواحل عكا. وعُرفت بعض قرى صفد بتربية النحل مثل (عين الزيتون). وكان الصيد البحري يتم على الساحل وفي البحيرات والانهار الداخلية.

النشاط الحرفي :

اشتهرت مدن مملكة صفد أيام المماليك بنسج الحرير الذي كان يُصدر إلى أوروبا. أما مدينة صفد، فقد عرفت بنسج الصوف نتيجة توفر الماشية وكذلك المنسوجات الكتانية. وتبعاً للانتاج الزراعي فقد نجحت صناعات زراعية مثل عصر الزيتون ودبس العنب وطحن الغلال. ويروى عن صفد في أكثر الموسوعات

أنها اشتهرت بصناعة اللباد المستعمل في سروج الخيل، وأدت زراعة (الحلفا) إلى ازدهار صناعة الحصر.

التجارة:

كانت الموانىء تصدر المنتوجات المجاورة كالقطن والرز والصابون، أو ما يأتي من آسيا، أما التجارة الداخلية فكانت نشطة بين صفد ودمشق، وكانت تفترض وجود محطات للقوافل على طول الطريق فيها خانات معدة للبشر والحيوانات. وكذلك استمرت تقاليد الاسواق المركزية في بعض القرى والمدن، الاسبوعية منها أو الموسمية. ولقد فرز النظام السياسي والاقتصادي السائد آنذاك أشكالاً من الضرائب أهمها: ضريبة الافراد ـ ضريبة الدخل ـ ضريبة الملك ـ الضريبة الهلاكية ـ الخراج ـ الضريبة الصناعية ـ ضريبة المرعى وصدقات الماشية ـ موجب باب المينا ـ المبادلات التجارية ـ ضريبة الطوارىء.

مظاهر الحياة الثقافية والتعليمية في مملكة صفد:

نلمس في أقوال بعض الذين تناولوا تأريخ مدينة صفد ومملكتها في هذا العهد، أو في وصف بعض الرحالة لمظاهر الحياة الاجتماعية في هذه الحقبة، عدد من التناقضات تعود في اسبابها إلى أثر الأحداث التي تعرضت لها هذه المدينة. وتعتمد أحياناً على الفرق بين موطن المؤرخ أو الرحالة الأصلي وموازنة كل ذلك بمدينة صفد وقت الزيارة، حتى أنها أصبحت موضوع وجهات نظر متضاربة. ومن الأمثلة ما رواه (Levies) في كتابه (An Arabec Account) حول إحدى المناظرات ففي رأي أحدهم: «هل من مردّ إلى سبيل لا مدرسة ولا رباط، ولا محل نزهة، ولا انبساط، فرد عليه أحدهم بذكر جامعها وقلعتها وميدانها ونتاجها. . .

ولم تذكر صفد في العهد المملوكي كعاصمة ثقافية يقصدها طلاب العلم. بل على العكس توجب على من يطمح إلى مزيد من انتهال العلم أن يغادر صفد إلى مصر أو دمشق، حتى أن أكثرهم شهرة ونسبة إلى صفد «صلاح الدين الصفدي» قد لمع أسمه وكثر نتاجه الأدبي في دمشق لا في بلدته صفد، إلا أن هذا لاينفي ذكر بعض المدارس والمساجد الشهيرة بها مثل (الجامع الأحمر) أو جامع

الظاهر بيبرس، والشهابة والشمسية، بالاضافة إلى الزوايا ومزارات بعض الصالحين ممن كانت العامة تعتقد بصحة دفنهم فيها من غير تحقيق علمي.

كانت هذه المراكز تقتصر على تعليم مبادىء القراءة والكتابة وقواعد علوم الدين واللغة على طريقة (الكتّاب) ولم يلمس المؤرخون ازدهاراً ثقافياً ملموساً كالعصر العباسي في بغداد، أو العصر الأموي في قرطبة. وربما يعود ذلك إلى أن المنطقة قد خضعت للسيطرة الفرنجية التي محت جميع الآثار الثقافية الإسلامية وألغت طابعها. وهذا ما أدى إلى فقدان الجذور والامتداد الثقافي وطغيان العجمة وضعف اللغة العربية بسبب تربع الاقليات الأعجمية على سدة السلطة والمجتمع؛ بالاضافة إلى سلسلة الصراعات المحلية على السلطة داخلياً وضد الفرنجة خارجياً.

ومما يجدر ذكره أن ميزانية هذه المراكز كانت تتأتى من ريع مايوقف عليها من السلاطين والأمراء والمتنفذين أو هباتهم في المناسبات العديدة.

صلاح الدين الصفدي:

وهو من أبرز اعلام المملكة الصفدية، ففي سيرة حياته وانتاجه دلالة واضحة واشارات عميقة على اتزان الثقافة والاسلوب الادبي لهذه الحقبة التي درج المؤرخون على اعتبارها من فترات الدول المتتابعة بُعَيد العصر العباسي أو من فترة الانحدار أو الانحطاط، مع عدم ايماننا بالمطلق في الاحكام أو التعميم في النقد.

كما أن تنقله في العواصم الادبية من ناحية، ثم المهام الوظيفية التي قام بها لدى ذوي النفوذ من ناحية أخرى، وفي مختلف مراكز السلطة في إبان الفترة المملوكية، ما يلقى الضوء على سمات أدبية أو أدارية أو اجتماعية بارزة. فقد نشأ في ظل والده على النعمة والترف، وفي العشرين من عمره مال إلى الالمام بعلوم العصر من فقه ولغة وحديث. واشتهر سريعاً بحسن الخط وبراعة الرسم على هوامش الكتب. ثم أخذ يقرض الشعر ويميل إلى فن المعارضة لاشهر الشعراء التقليديين، والاستشهاد بمشاهير القول مثل كعب بن زهير وطرفة بن العبد. ومن الأمثلة على ذلك محاكاة قصيدة (النازي) المشهورة التي يناجي بها الحمامة:

ناحــت مطوقــة ببــاب الـطاق فجــرت سوابـق دمعـي المهــراق

ومما يذكره بحمام وديان صفد:

وتـنـبـهت ذات الجنــاح بسحـرة بالـواديين فنبـهت أشــواقي[11]

ثم شد الرحال إلى دمشق، وهناك التقى الامام (أحمد بن تيمية) ودرس عليه. كما ذكره تاج الدين السبكي في كتاب (طبقات الشافعية). والتحق بحلقة (شهاب الدين أبي الثناء محمود) ثم يغادرها إلى حلب ليدرس على يدي علمائها. ويتذكر مسقط رأسه (صفد) فيعود إليها ويلتقي بالعالم الخطيب (نجم الدين أبي محمد الحسن) ويتبادل المخاطبة الشعرية مع القاضي (جمال الدين عبد القاهر التبريزي).

ومن خلال اطلاعه على المراسلات بين مركز السلطة في مصر ونيابة صفد، يتعرف أخبار العلم ومشاهيره هناك حيث يغادر إلى مصر ويلتقي (أثير الدين أبي حيان الغرناطي) الذي قدمه إلى الشيخ (جمال الدين محمد بن نباتة المصري) الذي لحق به إلى دمشق وعملا سوية في حلقات المسجد الأموي. وبعدها يتجه لزيارة حلب طمعاً بلقاء علمائها ومنها إلى مصر ليعمل في كنف الوالي (الناصر بن قلاوون) ويعين كاتباً للانشاء وهي من أرقى وظائف العصر ويعمل مؤدباً لابن (الملك الصالح) الذي جمع له مختارات أدبية سماها «ديوان الفصحاء وترجمان البلغاء» بعدها عاد إلى صفد وانصرف إلى التأليف ثم عُين وكيلاً لبيت المال بدمشق ٧٤١هـ ثم خلف (ابن نباته) في كتابة الديوان بدمشق حيث توفي عام ٧٦٤هـ ودفن في مقابر الصوفية قريباً من قبر ابن تيمية.

من أشهر مؤلفات صلاح الدين الصفدي:

- (الوافي بالوفيات) ويعتبر من أشهر المؤلفات في الاسلام (نحو ثلاثين مجلداً).
- (نكت الهميان في نكت العميان).
- (تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون).
- (نصرة الثائر على المثل السائر) وفيه نقد لكتاب ابن الأثير (المثل السائر).

---

١١ ـ سيأتي صلاح الدين الصفدي على ذكر وديان صفد واسمائها.

الفصل الثالث

صفد في العهد العثماني

تسلم السلطان سليم الأول قصبة صفد صلحاً في رجب سنة ٩٢٢هـ ـ ١٥١٦م، وجعلها سنجقاً[1] كسنجقي غزة والقدس من إيالة دمشق التي تسلّم ادارتها (جان بردي الغزالي) الذي كان يحكمها في أيام السلطان (قانصوه الغوري) آخر السلاطين المماليك الشراكسة[2].

واستمرت الحالة الثقافية الموروثة في فترة الانتداب البريطاني وكانت الأجيال تَحِنُّ إلى القديم ولا سيما بعد أن خابت آمالها في «الحليف» وتنكره للعهود في الاستقلال العربي ووحدة الدولة الموعودة. ولجأت العهود الجديدة إلى الحفاظ على التقسيمات الادارية الموروثة. وهكذا استمرت المملكة الصفدية التي عرفناها أيام المماليك ولكن تحت اسم (سنجق) تابعة لولاية دمشق بعد انتصار العثمانيين على قانصوه الغوري في معركة (مرج دابق) ولم تقع المعارك في صفد نفسها، ولذلك دخلت تحت الحكم العثماني صلحاً.

المتنفذون المحليون في العهد العثماني بصفد:

لم تكن قبضة الدولة العثمانية محكمة على جميع أجزاء امبراطوريتهم المترامية الأطراف. وكان النظام السياسي المستند إلى الشرائح الاقطاعية وشبهها يكتفي بما

---

١ ـ السنجق: تقسيم اداري بمعنى المحافظة أو اللواء.

٢ ـ صفد في التاريخ، محمود العابدي عمان، ١٩٧٧.

يرد إلى مركز السلطان من أتاوات دون كبير الاهتمام بأساليب جمعها أوتحصيلها.
وهنا وجد الحكام المحليون فرصتهم في التحكم والتفرد، وكبر نفوذهم حتى أن بعضهم تحدى مركز السلطان ولا سيما حين تواتيه الفرصة من ضعف في المركز أو بروز حليف له معادٍ للدولة فتلتقي المصالح.

وفي عام ١٠١٠هـ - ١٦٠٤م، قام والي دمشق بالعهد إلى (عبد الحليم اليازجي) بمسؤولية بلاد صفد (استمرت هذه التسمية منذ العهد المملوكي) إلا أن والي دمشق الوزير (جركس أحمد باشا) عاد ليعهد إلى أمير جبل لبنان (فخر الدين المعني) بولاية ضفد ومع تغيير هذا الوالي عن دمشق، فقد أدى إلى تنحية المعنى وإعادة تعيين (حسين اليازجي) مما أثار حقد فخر الدين المعني الذي لم يلبث أن حشد جنوده واحتل المدينة، وفتك باليازجيين واتباعهم.

ولم يفته أن يبعث بالهدايا إلى والي دمشق الذي سعى إلى الحصول على مرسوم (فرمان) من استنبول لتولية المعني على ولاية صفد إضافة إلى بيروت وصيدا.

وفي هذه الفترة عاش أحد اعلام صفد الاديب الفقيه (أحمد بن محمد بن يوسف الخالدي) الذي مكث في القاهرة وعاد إلى بلدته، وعاصر فترة الصراع على صفد لحين عودتها تحت نفوذ فخر الدين المعني، الذي تقرب منه وأرخ له. وقد قال يصف ما آلت إليه الأمور من بؤس وفوضى وجور حكام: حتى مَنَّ الله عليها بفخر الدين واعاد السكينة

ولما كان العربان (البدو) يستغلون فرصة اختلال الأمن ليعيثوا في الأرض، فقد استطاع هذا الامير أن يتفق معهم على ضرورة استتباب الأمن، حتى لقّبه المؤرخ الخالدي «بأمير لواء صفد» كما عرفه «بأمير صيدا والجليل» و«أمير فينيقية وفلسطين» في ايطاليا وعند البابا خاصة.

وكانت الدولة العثمانية تجد في بعض هؤلاء الحكام المتنفذين مايخفف أعباءها في السيطرة المباشرة على الأمن، ومسألة الصراع مع الأعراب، ولا سيما (بني حارثة) الذين امتد نفوذهم في بلاد صفد ونابلس ومقرهم (جنين)، بالاضافة الى عرب عجلون ومشايخهم، وبعض عشائر المغاربة. وكان فخر الدين المعني على

معرفة بالتناقضات المحلية وبالقوى الاجتماعية، ويجيد التعامل معها بالترهيب حينا وبالترغيب حيناً آخر، كما كان يقوم بإرضاء والي دمشق لينقل هذا بدوره إلى السلطة في استنبول التقارير الايجابية عنه.

إلا أنه في حالات الصراع بين الدولة العثمانية واعدائها (سواء في مصر أم في أوروبا) فقد كان هؤلاء المتنفذون أمثال فخر الدين ومن جاء بعده إلى هذه المنطقة، يستفيدون من التناقض أو من ضعف الدولة العثمانية كما سنرى.

وكانت طائفة من المؤرخين تنظر إلى هذه المرحلة من خلال موقف الأمير، أو شيخ الاعراب أو الوالي أو القائد العسكري من الاقليات الدينية وأسلوب التعامل معها حصراً، ولم تكن نظرة هؤلاء شاملة أو موضوعية إلا من خلال المعلومات التي ترد عفواً في ثنايا اهتمامهم المركزي باقلياتهم. ومن أمثلة ذلك تمرد قبيلة (الحارثة) في العهد المملوكي حين استولى الحارثي على الناصرة، واقترب من مدينة صفد عام ١٦٣٣م، مما أثار حماسة أهلها الذين فتكوا بعلي بن فخر الدين المعني، مما أضطر الأب الأمير أن يستميل شيوخ العشائر الاخرى والاستمرار في السعي لاسترجاع صفد، ولما تحقق له ذلك أرسل أعوانه من الحاشية وابناء طائفته إلى المدينة على رغم الوجود الرمزي للدولة العثمانية فيها.

مشاهدات بعض الرحالة عن مظاهر الحياة في صفد:

من أقوال الرحالة مايلقي ضوءاً على النشاط العمراني وبعض مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ونجد ذلك موزعاً في ثنايا رواياتهم العفوية. إلا أن كتاباتهم بقيت مصدراً لا غنى عنه لمن أراد البحث عن هذه الحقبة. ففي منتصف القرن السابع عشر، قام أحد عساكر الاتراك وهو (أولياشلبي)[3] برحلته إلى بلاد الشام من جملة عدة رحلات لتلك المنطقة، ونزل

---

٣ - أوليا شلبي (١٦١٢ - ١٦٧٩م) ولد في استنبول لأسرة تركية عريقة بالجندية، وخدم في عدة مناصب بالجيش العثماني. وبحكم منصبه قام بعدة جولات لمختلف أنحاء الامبراطورية العثمانية منها مصر والشام ويعتبر كتابه (سياحتنامة) باكورة الأدب النثري التركي وفيه سرد عن جولاته لبلاد الشام.

صفداً، وكتب انطباعاته عنها باللغة التركية وتُرجمت إلى الانكليزية ونقلها إلى اللغة العربية الاستاذ المرحوم محمود العابدي: «غادر الرحالة مدينة صيدا ماراً بقرية (يارون) ثم (الجش) من قرى صفد، ثم قطع الوادي حتى جبل (الزبود) غرب مدينة صفد قرب قرية (ميرون) الشهيرة وقد قال: «انتهت أحلامنا الجميلة حين بدأنا نعبر وادي الجش الذي ذكر من رفاقنا أن القافلة التي سبقتنا منذ أيام قضى عليها لصوص ذلك الوادي وقطاع طرقه»[4].

ثم يطيل الحديث عن قرية (ميرون)[5] التي تغلفها قصص أسطورية ومداخلات تاريخية بعيداً عن التثبت والحقائق الموضوعية. ثم يتابع: «وبعد أن أقمت هناك أحد عشر ساعة، توجهت إلى صفد شرقاً فبدت لنا حمامة تتحفز للطيران . . . وقصدت من فوري مغارة بيت الأحزان التي نزل فيها يعقوب عليه السلام، بعد أن فقد ولده يوسف، وهي عبارة عن غار واسع في الجنوب من القلعة، وفيها جامع ومحراب يتجه إلى القدس ومن ثم إلى مكة، وهو محفور من الصخر. وفي خارجها ساحة تشبه إرم ذات العماد أو جدتها قدرة الله القدير. وفي مقبرتها التي تمتد من ميسة أبي قميص أمير الصعيد، حتى خان الباشا في القيسارية، أشجار وارفة الظل يرقد تحت أفنائها مئات الأنبياء والصالحين والأعيان - رضوان الله عليهم».

وبعد أن يذكر هذا الرحالة أحداثاً مغرقة في القِدم حول مدينة صفد، وهي أقرب إلى الاساطير كالحديث عن سفينة نوح وبناء دمشق، يقول بأن سام بن نوح قام ببناء صفد. ثم يأتي على ذكر بنوخذ نصر وعهد الرومان: «ولما قضى الرومان على عصيان اليهود بعد المسيح بسبعين سنة، نامت هذه المدينة نوماً عميقاً واختفت في طيات الزمان حتى أقام فيها الفرنج حصناً كان شجاً في حلوق المسلمين».

---

٤ - إشارة إلى اضطراب الأمن وممارسات بعض الأعراب في المنطقة في حالات عدم الاستقرار.

٥ - قرية (ميرون): قرية عربية في حضن جبل الزبود، كانت تسكنها أسرة آل كعوش، وفيها مزار لليهود وكان يُقام حوله كل عام عيد موسمي عبارة عن سوق وأكثره من العرب. واستمر على هذا الحال حتى قبيل الخروج من فلسطين ولكنه اقتصر على الحفلات دون وجود سوق للبيع والشراء.

ثم يذكر (الغار) الذي يُنسب إلى يعقوب ونبيه، وكان يسميه الصفديون «الغار» أو «بنات يعقوب» لذلك سُمي الجامع المجاور «جامع الغار» نسبة إلى الأول أو جامع (بنات يعقوب) وأحياناً جامع «الشعرة الشريفة»[٦]، ويذكر ايضاً ماكُتب على مدخل الغار في عتبته العليا مايلي: «فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً، أمر بعمارة ذا المزار المبارك، على ضريح سيدي بشير، الذي جاء بقميص يوسف الصديق إلى أبيه يعقوب عليهما السلام، العبد الفقير إلى الله المقر السيفي فوزي الأدهمي التميمي نائب السلطنة المعظمة بقلعة صفد المحروسة بتاريخ شهر ربيع الأول سنة ٨١٥هـ - ١٤١١م».

ويذكر شيوع الفِرق والدروشة في ذلك العصر من خلال مشاهدته لعدة الدراويش قائلاً: «رغعت بصري إلى جدران الغار فرأيتها مزينة بطبول وحراب ودفوف ومزاهر وصنجات وكل مايلزم من عدة الدراويش».

ثم يصف الرحالة خان البلد في الجهة الغربية من القلعة ويقول بأنه يتسع لخمسة آلاف نازل مع دوابهم ويتفرع عنه ثلاثة أسواق مبلطة.[٧] وبعد أن يصف قصر الباشا، يتحدث عن جامع (الشيخ نعمة) الذي يُسمى (جامع السوق) وكان يؤدي الحاكم صلاته فيه، والجامع مزيّن بالرخام وبالرسوم وبالقاشاني. والشيخ نعمة المنسوب إليه هذا الجامع، مدفون خارج الباب الجنوبي المقابل لعين النائب التي هي من بناء (سنّان باشا) الذي بنى السوق ويُسمى بعين التجار.

---

٦ - كان التقليد في هذا الجامع، أن تعرض شعرة داخل زجاجة صغيرة محكمة الاغلاق يُقال انها من شعرات ذقن الرسول محمد ﷺ وكانت تمر على المصلين مساء يوم المولد النبوي الشريف كل عام فيلمسها المصلون تبركاً ثم تحفظ في صندوق داخل الجامع تحت إشراف المؤذن الذي كان يقود مجموعة المصلين في الأيام الأخيرة من رمضان في الأغاني الدينية خارج الجامع تسمى «التوحيش» وتبدأ: توحش الله منك ياشهر الصيام أي يوحشهم فراق الشهر.

٧ - هذا لم يكن موجوداً قبل الهجرة من المدينة، بل هنالك بقايا للأسواق امتلأت بالبناء الجديد ودوائر الحكومة بين الحي العربي والحي اليهودي في المدينة.

ويتابع الرحالة اهتمامه في وصف معالم المدينة فيقول: «في طريقنا إلى الجامع الأحمر، مررنا بالبناء العجيب المعروف (بزاوية بنات حامد)[8]، حقاً إنها تحفة من أروع الأمثلة على بنايات عصر المماليك.. وقد تجولت حول هذه الزاوية الضخمة البناء، فرأيت المراسيم السلطانية كتبت بحروف كبيرة على أفريز البناء من ناحية الجنوب».. ويتابع مسيرته لزيارة الجامع الأحمر قائلاً: «... وقفت مشدوهاً أمام عظمة جامع السلطان الظاهر بيبرس ـ جعل الله الجنة مأواه ـ وقد قرأت ما كتب فوق المدخل الشامخ وتحت المقرنصات «بسم الله الرحمن الرحيم ـ أمر بإنشاء هذا المسجد للجمعة المباركة، مولانا السلطان الملك الظاهر ـ ركن الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين ـ بيبرس الصالح ـ قسيم أمير المؤمنين سنة ٦٧٤هـ». ثم يصف صحن الجامع وصهريجه وقبته التي استمرت على حالتها حتى أيام الخروج. وقد اتخذ اسمه من لون حجارته وقام بتجديده بعد هذه الزيارة للرحالة، أحد حكام الاتراك الذي نقش اسمه على المنبر سنة ١٠٨٢هـ.

ثم يتابع الرحالة وصف مساجد المدينة ومواقعها ويتحدث عن المدارس فيذكر أن عددها ستة للصبيان الصغار ودار للفقراء. كما يذكر سبع زوايا وسبعة حمامات. ويصف عينيّ الماء ويتحدث عن الحالة الاجتماعية قائلاً: «وسكان المدينة فقراء، بسبب شدة مظالم الحكام، وعندما فتحها السلطان سليم في عام ٩٢٣هـ ـ ١٥١٦م، كان فيها بعض اليهود الذين هاجر معظهم إلى سلانيك. وقد قال الطواشي سنان باشا الذي تولى خراج الدولة العثمانية: «إن الخراج في أيامه جمع ست مرات في سنة واحدة. ويسكنها يهود أكثرهم من المسنين الفقراء الذين يقيمون فيها للبركة. وفيها حيَّان للأكراد. وأكثر من فيها من المسلمين هم جنود وحرس. ولذلك يقل فيها الصبيان والنساء. وفيها قائد حامية وضابط ـ إنكشارية وليس في القلعة خزندار ولا حصارجي، ولا كتخدا للانكشارية، ولا مقدمون لأنها خراب».

ثم يتابع أحاديثه العامة التي تعطينا فكرة عن البلدة آنذاك: «يلحق بصفد

---

٨ ـ على مقربة من الجامع الأحمر أصبحت مهملة في الأيام الأخيرة فيها قبور علاها العشب ولم يجدد بناؤها.

أربع مئة قرية، وكان عدد دافعي الضرائب ألف مكلف. وحول البلدة أشجار منوعة أشهرها ـ الزيتون والتوت والميس[9]، والتين والعنب. ويتحدث عن الصناعة فيقول: «وأشهر صناعة فيها هي اللباد، وهو عبارة عن قماش صوفي سميك يصنع من الشعر الحيواني والصوف، وكان يُستعمل غطاء للرأس، وبسطاً وعباءات سمكية وبطانات لسروج الخيل. ويلبس الرجال من سكانها العبي القصيرة المخططة التي تُشد على الأوساط بالمناطق الجلدية (هذه لم تستمر حتى أيامنا)، وتلبس النساء ملاءات بيضاء فوق ملابسهن العادية وقَل أن تظهر امرأة مسلمة في الطريق»، (أيضاً العباءة البيضاء لم تستمر).

ثم يذكر زيارته لقبور الصحابة وأخيراً زيارته للقلعة حيث لم يجد حولها سوى «بعض المساكن البسيطة وفي أرضها زرائب للغنم وجدرانها أعشاش للبوم والغربان والوطاويط[10]».

إمارة الشهابيين وبروز ظاهر العمر:

ظلت صفد في عهد المماليك مركزاً له شأنه، وأصبحت قصبته إحدى النيابات السورية التي ضمت مدن الجليل جميعها ومدينة عكا أيضاً. وفقدت مدينة صفد بعد هذا التاريخ أهميتها بالتدرج إلى أن استسلمت مع باقي المدن الفلسطينية للعثمانيين زمن السلطان سليم الأول بدون حرب سنة ٩٢٣هـ ـ ١٥١٦م وأصبحت قصبة (سنجق).

---

٩ ـ لم يبقَ في أحياء صفد من هذه الأشجار الفلينية الباسقة الضخمة سوى: ميسة أبو قميص قرب مدخل المدينة من الشرق، وميسة جامع الشعرة الشريفة، وميسة الجسر، وبضع ميسات في القلعة وأخرى في وادي الحمراء في حاكورة عائلة (أبو زينة) وله ثمر يبدأ أخضر ثم يميل للاصفرار، ثم مابين الأصفر والأسود إلى أن ينضج فيصبح أسود، وهو عبارة عن حبات صغيرة لها نواة ويؤكل منها قشرتها الرقيقة وقبيل سقوط صفد لم تبقَ هذه الأشجار بالكثافة التي وصفها الرحالة عند مقبرة مغارة الأحزان، ولكن هنالك دلائل من بقية الأنواع المذكورة ثم بدأت بيوت السكن تظهر في هذه المنطقة.

١٠ ـ زار البلدة الشاعر المرحوم الشهيد كمال ناصر في نهاية الحرب الثانية فقد كان عمه قائمقاماً ولم يجد فيها ما يؤنسه فانتقدها بقصيدة ذكر فيها نعيق البوم والغربان..

وفي القرن السابع عشر احتل الأمير فخر الدين بن قرقماز المعني الثاني مكانة هامة في الجليل، واتخذ صفد حصناً لحماية املاكه فيها. ولكن الاتراك قضوا عليه وتأسست بعد ذلك إمارة للشهابيين الذين مالبثوا أن عينوا الشيخ (عمر بن زيدان) على صفد لمساعدتهم. واتسع نفوذه على مر الأيام إلى حين استقلال ابنه الشيخ (ظاهر العمر) عن الشهابيين عام ١١٦٤هـ - ١٧٥٠م، واتخذ من عكا مقراً له. وفي عهده «نشطت الزراعة والتجارة والعمران وشعر الناس بالأمان»[١١]، ولذلك وَجبَ القاء مزيد من الأضواء على الفترة التي برز فيها عهد ظاهر العمر، لما لها من أثر هام في تاريخ فلسطين العربي حيث ذكر وكيل مدير مركز التوثيق والابحاث بجامعة النجاح الوطنية في نابلس في المقدمة التي كتبها عن مخطوطة ظاهر العمر مايلي: «إن المخطوطة تقص جانباً من سيرة رجل فلسطيني المولد والنشأة والمناضلة، وقد امتلأ قلبه بهم عزيز كبير وهو أن يحقق استقلال فلسطين وكذلك بلاد الشام وأن يجعل منها بؤرة الوحدة العربية الاسلامية، فهو ا لرجل العربي الفلسطيني الأول في تاريخ هذه البلاد الحديث، والذي ارتفع وعيه الوطني إلى حد النضال المستمر من أجل استقلال وطنه العربي ووحدته، وقد قطع في ذلك شوطاً بعيداً جداً». كذلك يشير إلى أن المخطوطة تعطي الدارس معلومات موثقة عن البناء الاقتصادي الاجتماعي ومظاهره السياسية لفلسطين في القرن الثامن عشر، وتشير إلى ازدهار فلسطين آنذاك: «فقد فاضت فلسطين في عهد ظاهر العمر، وكعهدها دائماً، بالحبوب والقطن واللحوم ونالت حظاً دولياً في التجارة والخيرات».

نشأة الأسرة:

بعد ذيوع صيت الأسرة الزيدانية، لجأ المؤرخون أو من تصدوا إلى تأريخ الأسرة، لا سيما الذين عملوا معها، إلى البحث عن أصل الأسرة ومرابعها وبأحاديث وروايات مختلفة، ولكن منذ بروز (ظاهر العمر) على الساحة الفلسطينية بدأ الاهتمام بتأريخ عهده وتأريخ مرحلة والده الذي تولى ديار صفد

---

١١ ـ مقدمة مخطوطة (ظاهر العمر قائد فلسطيني استقلالي) تأليف ابراهيم الدنفي السامري، تحقيق وشرح موسى أبو دية، من أوراق فلسطين الثورة، منشورات مؤسسة بيسان للصحافة والنشر، نيقوسيا، ايلول ١٩٨٦ (الطبعة الأولى).

بعـد أن أقامه عليها الأمير بشير أول الأمراء الشهابيين (١٦٩٨م)، وفوض إليه التزام أراضيها. وأحياناً كان يُشار إلى نشأة الأسرة في (عرابة البطون) أو طبريا من أعـمال صفـد آنذاك، وأحياناً كانوا يشيرون إلى بلاد صفد. واستمر حكم هذه الأسرة لبلاد صفد والجليل ثمانين سنة منها أربعون «عصاوة» أي تمرد على الدولة العثمانية.

وهـذا الحكم هو إحـدى ظواهر الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية آنــذاك: ومـا اتصفت به من صراع على السلطة والـولايات الأسروية والقبلية والطـائفيـة ثم الجهـويـة الضيقة، ثم شكل العلاقة مع الدولة العثمانية التي استعملت هذا الواقع لمصلحتها في حكم بلاد الشام.

عمر الزيداني شيخاً على صفد:

انتهى حكم سلالة المعنيين عام ١٦٩٧م في جبل لبنان وشمال فلسطين، وانتخب مشايخ جبل لبنان «الأمير بشير بن حسين الشهابي» ابن أخت الأمير (أحمد المعني) آخر السلالة المعنية. والتمسوا من وزير صيدا أن يأمر بتحويل المقاطعات التي كانت تحت سيطرة المعنيين إلى الأمير بشير الشهابي، والذي يقوم بدوره بدفع الأتـاوات المـترتبة له وللدولة العثمانية كما هو معروف بالنظام العثماني، والتقاليد المحلية وليدة ذلك النظام.

وقد صدر فرمان سلطاني بأن يقوم الأمير بشير بتصريف أمور الولاية، ولما استقـر به الحال بعد اخضاع بعض الفتن التي يفسرها المؤرخون على أنها بقايا صراعـات قيسية ـ يمانية، تداخلت في البنية الاجتماعية المحلية، ولّى ابن أخيه الأمير (منصور الشهابي) والياً على بلاد صفد. إلا أن بعض المؤرخين[١٢] يشيرون إلى سلطة (الزيادنة) قبل الشهابيين أي منذ عهد المعنيين.

ويتداول أهل صفد مثلاً يضرب: «وهل أنت ابن علي الظاهر؟» وهل «بيت فلان كقلعة الظاهر» بالاضافة إلى الأحاديث الاجتماعية لعادات القرى والبلدان حول التغني بالحسب والنسب والاصل والمباهاة بذلك. وقد كان يُشار إلى عائلة

١٢ ـ نوفل نوفل: كان للدولة المعنية السيطرة على البلاد زهاء ١٥٠ سنة، وانقرضت بموت أحمد المعني سنة ١٦٩٧م.

صغيرة العدد «آل صنديد» بأنهم ينحدرون من سلالة ظاهر العمر التي حكمت المنطقة أيام العثمانيين، دون أن توجد معلومات محققة عن ذلك.

وفي عام ١٦٩٨م، أقام الأمير بشير الشهابي عمر بن أبي زيدان العمر، شيخاً على بلاد صفد، إذ أنه في الوقت الذي كان فيه آل شهاب على المسرح السياسي في لبنان، كان آل زيدان أو (الزيادنة) أصحاب النفوذ في بلاد صفد والجليل التي كانت امتداداً للجبل. وكان هذا النفوذ يستند إلى الأسلوب الاقطاعي وضمان الأراضي وفي مقدمتها الالتزام بتأدية الأتاوات للدولة العثمانية وحكامها في المنطقة.

وبعد وفاة (عمر) لم يسجل أبناؤه صك (التزام الأراضي) بأسمائهم حتى لاتطالبهم الدولة بالرصيد الذي لأبيهم بل نُقل الالتزام باسم أخيهم الاصغر (ظاهر العمر)، بالاضافة إلى أعمالهم التجارية الداخلية والخارجية. ثم بدأ ظاهر العمر يبرز في المجال الاقطاعي والحربي حيث ذكر المؤلف توفيق معمر على لسان أحد المؤرخين لظاهر العمر وهو عبود الصباغ فقال:

«صار ظاهر يتقوى سنة بعد سنة.. وأخذ يتلزم الأراضي رأساً من مدير الدولة في صيدا، دون الحاجة إلى كفالة الشهابيين في لبنان، لأن قوته ازدادت مالاً ورجالاً» وهكذا أصبح اقطاعياً مستقلاً تابعاً لوزير الدولة في صيدا.

بروز ظاهر العمر:[١٣]

تأسست سلطته المحلية وبرز كشخصية اقطاعية عسكرية في قرية (عرابة البطوف) من بلاد صفد وإحدى قرى طبريا عام ١٦٨٩هـ - ١٧٣٠م، وكانت تلك بدايات نشأته الأولى، وانطلاق سلطته، ولقد أنصف أهلها من جشع متوليها في جمع الأموال الاميرية، وفي هذه الاثناء (١٧٣٠م - ١٧٤٣م) ترك (عرابة) لأخيه (سعد العمر) الذي لم يلبث أن انتقل فيها إلى (دير حنا)[١٤] في الوقت الذي كان

١٣ - معظم المعلومات مستقاة عن مخطوطة مصورة لكتاب «ظاهر العمر» ١٩٧٩، تأليف توفيق معمر من أبناء الناصرة.

١٤ - دير حنا: مازالت تحت الاحتلال الصهيوني وفيها بقايا من السكان العرب الذين كان لهم مواقف وطنية في ذكرى (يوم الأرض) بشكل خاص.

فيه (ابن عمر محمد العلي) يسيطر على الساحل وكان على خصومةٍ مع ظاهر العمر مما جعله ينحاز إلى الدولة العثمانية.

ولقد اختار ظاهر العمر (طبريا) مقراً للاقامة ومنطلقاً للنفوذ نظراً لحصانتها، ومنها استطاع الاستيلاء على قلعة (جدين)[١٥] الشهيرة قرب عكا، ثم استولى على قلعة صفد التي كانت بحوزة شخص يُسمى (محمد نافع) وتتبع لها بعض القرى الرئيسية. وباستيلائه على الاقاليم الجبلية، أصبح على تماس مع منطقة نفوذ (المتاولة) جنوب لبنان إلى الشمال من فلسطين. وباستيلائه على الناصرة ومنطقة مرج ابن عامر، أصبح على تماس مع اقطاعيّي وتجار ومشايخ جبل نابلس آنذاك. وفي علاقاته مع المتنفذين، كان ظاهر العمر يمتاز بالواقعية، فهو لايلجأ إلى القوة إلا بعد استنفاذ السبل العادية، بما فيها الاتصال بالوزير في صيدا، أو رشوة المتنفذين، أو حتى الزواج من احدى بنات المتمردين، ثم معرفته لطبيعة التناقضات والتحالفات بين القوى الاجتماعية المختلفة، واستغلال ظروف الضعف والقوة لدى الخصم وعلاقاته سواء بالدولة أو بالقوى المحلية الأخرى.

التوسع والصدام مع مشايخ نابلس:[١٦]

إن الخلاف الذي نشب بين ظاهر العمر ومشايخ نابلس، الذين كانوا قد انضموا مع آل العظم في دمشق في ولائهم للعثمانيين، على سوق الناصرة وأراضي مرج ابن عامر وعائداتها، أدى إلى نشوب معركة (المنسي) جنوبي شرقي حيفا، حيث كان الانتصار فيها لظاهر العمر، على رغم تنكر (عرب الصقر) له، والتجائهم لإعدائه بعد أن أدى انتشار الأمن إلى انقطاع رزقهم الذي اعتمدوا عليه في قطع الطرق وأعمال النصب، وذلك بفضل سلطة (ظاهر العمر).

---

١٥ ـ قلعة جدين: تردد ذكر اسم هذه القلعة مع بدايات دخول (جيش الانقاذ) الذي كان عبارة عن مجموعة من المتطوعين العرب بإشراف الجامعة العربية ومركز قيادته دمشق. وكانت المعارك الأولى التي تصدى فيها هذا الجيش لمستعمرة قرب القلعة المذكورة أو فيها. وكان أسلوب الهجوم يتصف بالعفوية وقلة الخبرة.

١٦ ـ راجع مخطوطة (ظاهر العمر قائد فلسطيني استقلالي). لتوفيق معمر.

وباستيلاء ظاهر العمر على مرج ابن عامر، الذي يفصل بين منطقة جبل نابلس الخاضعة للأسر الاقطاعية (آل طوقان، آل النمر) الموالية للدولة العثمانية، وبين بلاد صفد الخاضعة لظاهر العمر، أدى إلى الحرب بينه وبين مشايخ جبل نابلس، ولا سيما بعد أن سيطر على الناصرة، وهي منطقة نفوذهم التجارية بعد تغلبه على (آل جرار). بعد ذلك، سلّم طبريا إلى ولده البكر (صليبي) وارتحل إلى عكا وسيطر على خليج حيفا. وفي هذه الفترة ازدهرت عكا بعد أن حصّنها عسكرياً لتصبح سوقاً تجارية محلية واقليمية وعالمية، وبنى علاقات تجارية مع البدو والفلاحين والتجار الاوربيين وممثليهم والقناصل، وبالتالي بنى المؤسسات اللازمة لنظام دولة في حدود مفاهيم العصر ومعاييره، مع ابقائه على الروابط مع الدولة العثمانية من جهة، ومع ممثليها في بلاد الشام ولا سيما في دمشق وصيدا من ناحية ثانية، وقيامه أيضاً بدفع مال (الميري) والهدايا «من غير أن ينكسر عليه شيء»[17].

وبازدهار التجارة مع أوروبا في أواخر القرن السابع عشر، تبدأ الاطماع الاستعمارية واتخاذ حماية الأماكن الصليبية أو الأقليات أو التجار ذريعة للتدخل والهيمنة.

وقد وصف الرحالة الفرنسي (دي فولفي)[18] أحوال هذه البلاد في القرن الثامن عشر، وقام برحلات إلى سورية ومصر (١٧٨٣ ـ ١٧٨٥م) وقدّم تعريفاً للمهتمين الأوروبيين ، بطبيعة البلاد وبنائها الاجتماعي ويذكر عن انجازات (ظاهر العمر) إنشاء كلية في صفد لتلقين أصول الدين والفقه. كما شجع زراعة القطن قبل محمد علي في مصر.

ولقد اقطع ابنه (علياً) صفد ومن هنا بقي اسمه يتردد في الأمثال بين ابناء صفد حتى بعيد احتلالها، ولقد نبغ في فنون الحرب حتى غدا مضرب الأمثال وكان لقبه (الهزبر والصنديد) وهنا يُشار إلى أسرة صغيرة من صفد (آل صنديد) من

---

١٧ ـ عبود الصباغ ـ رجع إليه توفيق معمر

١٨ ـ مر الرحالة (فولني) بصفد في رحلته إلى بلاد الشام وقد قال عنها: «وعلى مسافة سبعة فراسخ من بحيرة طبريا قرية صفد، والقائمة على سطح جبل. وتعد صفد مهد السلطة التي توصل إلى احرازها الشيخ ظاهر العمر»

سلالة توزعت بين دمشق والكويت. كما لُقبَّ (أبو الشوارب) لطول شاربيه و(أبو النسرين) تذكيراً بولديه الحسن وحُسين[١٩].

وفي أثر توزيع البلاد بين ابنائه، تجمعت صراعات عديدة حتى بين الأبناء ومع الأب، وكان ظاهر العمر يستعين في ادارة البلاد بالمتعلمين سواء الكتاب أو من الجوامع آنذاك. وقد كان لبعضهم الدور في تسجيل وقائع إمامة ظاهر العمر، مثل ميخائيل بن نقولا الصباغ العكاوي، المتوفي سنة ١٨١٦م، وقد ألف «تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني»، كذلك عبود الصباغ العكاوي مؤلف مخطوط «الروض الزاهر في تاريخ ظاهر». (وقد كشف مؤلف ظاهر العمر (توفيق معمر) بعض الأخطاء في هذين الكتابين).

٤ ـ التحالف بين ظاهر العمر وعلي بك الكبير في مصر:

وفي سنوات ١٧٦٨ ـ ١٧٦٩م، بدأ ظاهر العمر يتطلع إلى التحالف مع علي بك الكبير، حاكم مصر مستفيداً من تناقضه مع الدولة العثمانية التي انشغلت بالصراع مع روسيا القيصرية، مع أن الدولة العثمانية قد اسبغت عليه ألقاباً لها دلالاتها في حكمه الذاتي: (شيخ عكا، أمير الأمراء، صاحب الناصرة وطبريا وصفد وشيخ الجليل). ونعته مؤرخو عصره (بالظاهر الصفدي الزيداني حاكم مدينة عكا وشيخ شيوخ البلاد الصفدية صاحب المواقع الشهيرة والخارج عن طاعة الدولة العثمانية. . . .) وكانت ترفع إليه الكتب بـ«حضرة ولي النعمّ الشيخ ظاهر العمر دام بقاه. . » أو «سعادة أفندينا ظاهر العمر الفايق الشرف».

وتبعاً لفظائع ولاة الدولة العثمانية في انحاء فلسطين غير الخاضعة لظاهر العمر طمعاً في الضرائب والجبايات المختلفة، أصبح الحلف بين ظاهر العمر وحاكم مصر أمراً طبيعياً، بالاضافة إلى طبيعة العلاقة التاريخية بين بلاد الشام ومصر «هما كشقي باب واحد فكل من هذين القطرين متمم للآخر والجمع بينهما فيه الخير كل الخير لهما». وعلم ظاهر العمر من عيونه في الاستانة الهدف من توسيع صلاحيات والي دمشق حتى يشمل معظم فلسطين، بعد أن عيَّن ابنه والياً على

---

١٩ ـ روي أنهما عاشا في تركيا ونبغ أحدهما في الشعر التركي (توفيق معمر).

صيدا. فكما ذكر ميخائيل الصباغ[20]: «ان الدولة أرسلت إلى عثمان باشا تحثه على قتالك، وإنها مساعدة منها لوزيرها حسب طلبه، فوضت إيالة صيدا إلى ولده درويش باشا، كما أرسلت إلى والي حلب والأمير يوسف حاكم جبيل ليكونا عونا لهما على قتالك وقطع رأسك ورأس أولادك جميعاً...»، فتم التحالف مع علي بك الكبير الذي اعتبر تضامنا عربياً ضد السيطرة العثمانية في رأي بعض المؤرخين. ولذلك حاول حاكم مصر أن يعيد حكم المماليك في بلاد الشام وذلك بسبب الهزائم التركية في صراعاتها مع روسيا، وأرسل لهذا الغرض عامله (محمد بك أبو الذهب)[21] سنة ٧٧١م ليستولي على دمشق وسائر مدن الشام. وقد وجد الظاهر العمر في أبي الذهب حليفاً مناسباً له.

بعد ذلك استولى ظاهر العمر على مدينة صيدا عام ١٧٧٢م، إلا أن استنبول أرسلت كتيبة لمساعدة والي دمشق والأمير يوسف الشهابي الذي تحالف معه ضد الخطر الآتي من الجنوب، خطر المماليك. وبعد معارك بحرية وبرية استعادوا من ظاهر العمر صيدا عام ١٧٧٥م، وتراجع الأخير إلى عاصمته المحصنة عكا، حيث أقامت قوات دمشق الحصار عليها. وقام جنود الحامية باغتيال ظاهر العمر وتم تسليم عكا للقوات الدمشقية والتركية، وأرسل رأس ظاهر العمر إلى استنبول[22].

وأشرنا سابقاً إلى استمرار اسم ظاهر العمر وأبنائه في الأمثال الشعبية في البلدة، ولا سيما ابنه (علي).

ويروي (توفيق معمر) في كتابه (ظاهر العمر) الذي جمع ماكتب قبله وقام بتحقيقات شخصية في قرى الجليل، حتى بعد النكبة لأنه استمر يعيش في

---

٢٠ ـ ميخائيل صباغ العكاوي ألف كتاباً تحت عنوان: «تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني» ولذلك اعتبر مؤرخه. ويذكر محمود العابدي في كتابه حول صفد بأن ميخائيل الصباغ قد أورد اغلاطاً مطبعية كثيرة اسوأها الأخطاء في الأرقام والتواريخ. ويذكر أن قسطنطين الباشا قد نشر الكتاب وطبعته مطبعة حريصا.

٢١ ـ «أبو الذهب»: لكثرة مابذل من هبات وعطايا ورشوات من الذهب.

٢٢ ـ انظر نهايته في كتاب توفيق معمّر.

النـاصـرة، ووجـد من المسنّين من كان يحفـظ الأشعار الشعبية التي رددها أنصار ظاهر العمر وبنيه، في مختلف المواقع التي خاضوها. وفي إحداها رواية لأصل الاهزوجة الصفدية التي كانت تتكرر في مختلف المناسبات:

صفد ياعالية وبراس تلة
واللي (الذي) يبغضك يصاب بمئة علّة

ويُقال بأن مجموعة من جنود (علي) كانوا في طريقهم إلى البلدة قادمين من المـواقع الوعرة والحصينة في الضواحي، فصادفوا حسناء تقطف أقراص العسل وحولها النحل فقال أحدهم يعرف بجمال الفتاة:

لو كان حولك عسكر دولة
لكان لنا فيهم قولة

فأجابت الفتاة: «صفد ياعالية وبراس تلة» واكملت تمدح (علي) وحمايته للبلدة. وليس غريبـاً أن تبـدأ الشـاعرة الفلسطينية ابنة البلدة (سلمى الخضرا الجيوسي) أحد أوائل دواوينها بقصيدة بعنوان «صفد ياعالية وبراس تلة». وقد مر معنـا نهاية ظاهـر العمر وأبنائه، لكن بعض المؤرخين يأتون بحكايات مختلفة، فمنهم من يقول بأن نهاية (علي) كانت على يد مجموعة تظاهرت بنصرته ثم اغتالته أثناء قيامها بألعاب الفروسية أمامه في ضواحي صفد (الحولة). وفي رواية أخرى، أن هذه المجمـوعة قد بعث بها والي دمشق الذي قيل بأنه حمل رأس (علي) إلى الاستانة وهناك تعرف ولداه عليه. وبرز أحدهما في مجال الأدب والشعر العثماني.

ثم جاء أحمد باشا الجزّار ليحكم عكا وبدأ بتوسيع املاكه بانتزاع صفد من أولاد ظاهر العمر سنة ١٧٧٥م، وقاومت الناس حكم الجزّار الذي حاصر قلعة صفـد مدة طويلة وفجـر تحصيناتها. وبموت علي بك الكبير والي مصر، لم تعد للجزّار حاجة بأي من أبناء الظاهر، وأمر بخنقهم في أقبية قلعة صفد، وقتل كل الموالين لهم من وجوه البلد. وكان اعتقاده أنه سيمحو آثار الزيادنة في صفد كما تشير بعض الروايات.

نكبة الزلزال في صفد:

عام ١١٧٣هـ - ١٧٥٩م، زلزلت صفد زلزالها الأول والذي أصاب دورها بالخرابِ، فما كان من ظاهر العمر إلا أن يطلب من ابنه (علي) أن يجدد بناء القصبة ويرمم أسوارها ويقوي من تحصينات القلعة، وفي ١٨٣٧/٧١م (١٢٥٢هـ) أصاب المدينة زلزال مروّع هدم معظم أجزائها وكان قد عم معظم المنطقة حتى بيروت وصيدا وصور ومعظم مدن وقرى الجليل. وبسبب صعوبة المواصلات آنذاك لم تكن الأخبار موثقة. ولكن حصل شبه إجماع على ماحصل بصفد من دمار. ولقد وصف (و. طومسون W. Thomson) مؤلف كتاب (The Land and The Book) مشاهد من آثار الزلزال في هذه المدينة، وفي أكثر المدن والقرى التي طالها أيضاً. وتوقف ملياً في مدينة صفد التي زارها، وذكر مشاهد وقصصاً وأخباراً فردية وعامة توحي بمقدار هول الزلزال وأثره. فإحدى العائلات الكبيرة لم ينج منها سوى فرد واحد صادف وجوده في الناصرة (آل شومر). كما يروي المتقدمون في السن من أهل المدينة عدداً من الروايات التي سمعوها عن أجيال سبقتهم.

ويصف الدكتور (طومسون) الحي اليهودي قائلاً: «وصلنا إلى الحي اليهودي الذي زرته قبل سنتين وكان فيه أربعة آلاف يشتغلون بجد ونشاط، أما الآن فقد خيّم عليه الهدوء واستولى عليه السكون، إذ لم يبقَ فيه بيت قائماً والسبب الذي جسّم المصيبة هو أن بيوت صفد مثبتة على سفح جبل بحيث أن أسطحة البيوت السفلى كانت ممرات وطرقات للبيوت التي هي أعلى منها. ولما زلزلت الأرض زلزالها انزلقت البيوت العليا على البيوت التي أسفل منها فهدمتها، وماكاد الأحياء يصحون من هول الوقف العظيم حتى خيّم الظلام على البلد، فالذين لم يقتلوا حالاً، ماتوا قبل انقاذهم، والسعداء منهم القذوا من تحت الردم بعد ستة أو سبعة أيام».

أما انطباعه الأول بعد أن غادر صيدا وصور في لبنان وأتى إلى صفد فكان: «أول نظرة ألقيتها على أكمة صفد العالية أوحت إلى عبرة لن أنساها، ألا وهي مقدرة الله على انزال أكبر نكبة في لحظة واحدة على بلد مهما كانت جبارة. لقد

وقفنا مشدوهين أمام هذا الغضب الالهي، حين أسفرت لنا الحقيقة المؤلمة بأبشع صورها. عندما كنا في بيروت شككنا في صحة الأخبار التي وصلتنا، لكننا الآن تيقّنا أن الناقل لم يستطع أن يصف نصف الواقع». ويتناول الكاتب لوحات تراجيدية مما رآه أو سمعه حتى يقول: «يا إله العدل والرحمة! أيموت سكان المدينة أو أربعة أخماسهم تحت التراب؟! إن نفس الإنسان ليأكلها الألم حين تسمع أنّات الجرحى وحشرجة الأنفاس وتألمات النفوس».

الفصل الرابع

أحداث صفد في القرن التاسع عشر

صفد ونابليون:

في كتاب عن نابليون نشرته مكتبة الآداب، ورد فيه أنه أثناء حصاره لمدينة عكا بعد قدومه من مصر عام ١٧٩٩م، أوفد حفنة من رجاله للتعرف على جبال صفدْ وعددهم سبعة أنفار. فقام عدد كبير من الصفديين بقتلهم ماعدا ضابطهم الـذي تمكّن من الهرب من معتقله في إحدى القرى. إلا أن أحد المتعاونين مع نابليون جمع حشداً وقام بطرد أنصار (الجزّار) من صفد الذين ذهبوا إلى والي دمشق لعدم تمكنهم من دخول عكا. فاستنجد الوالي بدمشق بعدد من العربان للاشتراك بمحـاصرة القلعة. وهنا بعث نابليون بالجنرال (مورا Murat) للزحف على قلعة صفـد، فوصل إليها واحتلها في ربيع ١٧٩٩م، وكانت في قبضة (المغاربة) من رجـال والي دمشق العثـماني وبعد أن استراحوا ليلة في (الرامة)[1]. ولم يلبث أن اصطدم الفرنسيون في معركة ضد جيش الشام بقيادة الوالي التركي بعد أن بعثوا بالمدد إلى حامية صفد الموالية لهم. وجرت هذه المعركة في (سهل الخيط) في منطقة الحولة. ويروي الفرنسيون أنهم انتصروا فيها وحصلوا على غنائم.

ولـما فشـل نابليـون في احتـلال عكـا بعـد حصـارهـا الشهير (سبعين يوماً)

---

١ ـ من قرى الجليل المعروفة بين عكا وصفد ومشهورة بكروم الزيتون ومعاصره. وقد بقي فيها بعض السكان العرب بعد الاحتلال

اضطرت حامية صفد إلى الالتحاق بجيش نابليون المنسحب من فلسطين إلى مصر، ولم تمكث في المدينة أكثر من شهر واحد مما مهد الطريق (للجزّار) للعودة إلى صفد والانتقام من أهلها.

وخلف سليمان باشا المعروف بالعادل حكم (الجزار) ١٢٤١هـ ـ ١٨٣٥م، وفي تلك الفترة برز دور صفد في ثنايا الحديث عن موقف الدولة العثمانية من الحركة الوهابية في نجد (الجزيرة العربية) حيث كُلف والي عكا بالمساعدة والامداد، وهو بدوره طلب من أهالي صفد وضواحيها بالتعبئة والمسير إلى مقاتلة الوهابيين ولكن التناقض بين والي عكا ووالي الشام آنذاك، بالاضافة إلى فقدان الثقة، جعل الحملة تعود أدراجها بعد أن خيَّمت في منطقة (سمخ).

صفد في عهد ابراهيم باشا:

في عام ١٨٣١م، أرسل محمد علي والي مصر ابنه ابراهيم باشا، وضمن خطته في التوسع والاستقلال عن العثمانيين، لفتح بلاد الشام. وما أن تم له هذا الأمر حتى لجأ إلى أساليب العثمانيين نفسها في تحصيل الضرائب واحتكار التجارة وسوق المواطنين للجندية أو السخرة (العمل الالزامي المجاني) فلم يلبث أن سبب النقمة بين سكان فلسطين وعمت نقمتهم جبال صفد ونابلس والقدس.

وقبل حمل السلاح في وجه ابراهيم باشا، حاول أبناء صفد التقرب من هذا الأمير (بشير الشهابي)[2] فقام وجهاء البلد بتوجيه عريضة إليه يوحي نصها بركاكة اللغة العربية آنذاك. والكتاب مأخوذ عن مؤلف الأستاذ محمود العابدي «صفد في التاريخ ص ٩٧». جاء فيه: «غير خافي سعادتكم الانقال التي حاملتها أهالي صفد من ورشات وسخر ومطالب زايدة، هذا كله لم يكفي بل بدهم عساكر نظام. وغير خافي أن الولد مهجة الكبد، ولم أحد يفوت ولده ولو فات نفسه. فلزم الناس عافت أرواحها. وقامت على ساق وقدم، وتوكلت على من التحريك والتسكين بيده، ولايضر ولا ينفع سواه وجميع المقاطعات من العربان والفلاحين،

---

٢ ـ ترك محمد علي أمر الثورة في صفد ومناطقها للأمير بشير الشهابي الذي تحرك من قصره في دير القمر وحط رحاله في (بنت جبيل) وكانت على الحدود الفلسطينية اللبنانية، ومحطة للاجئي صفد عام ١٩٤٨؛ الذين حلوا فيها قبل الشتات في لبنان وسورية.

ومدن عساكر ـ كلمن عنده حوالي، أو رأى جنس عثماني شلحوه أو قتلوه، وحالة اليهود في صفد صار عليها نهب من أهالي الديرة، وأما من جهة عكا لم بها عساكر، وعمالة الخيل تؤخذ غنايم من البوابة. لزم اعراضه لسعادتكم لكي تمدونا برأيكم وتعرفونا مافي خاطركم، وعلى كل حال أنت ابن شهاب وفي ظهرك الرجاجيل الفحول المجربة الأطوار. .».

ولكن الشهابيين لم يتجاوبوا مع رغبات أبناء منطقة صفد، وحين زار محمد علي باشا (يافا) وعرف عن ثورة أهل صفد، طلب إلى ابن الأمير بشير (أمين الشهابي) أن يقوم بتأديب المتمردين في صفد.

وفي عام ١٨٣٤م، سار الأمير بشير الشهابي بنفسه متوجهاً إلى صفد، وسيراً على تقاليد السلطة شبه الاقطاعية، كان يجمع الأنصار والمقاتلين من ضواحي صيدا ومن ضواحي القرى القريبة والتابعة لامارته. فسار ابنه (خليل) من الناصرة إلى صفد بخمسمائة فارس، وحاول بعض وجهاء المنطقة التوسط، فاشترط الأمير بشير أن يقابله وجهاء المدينة في (بنت جبيل). وبعد أن قبل طاعتهم ساروا مع ابنه (أفندي) ورجاله إلى صفد وقلعتها، وبعد أن اطمأن سار بنفسه إلى المدينة حيث التقى بعض ممثلي الاقلية اليهودية الذين جاؤوا يشكونه ماحل بهم من جراء هجوم أهل الديرة (القرى) على حيهم ونهبهم له. وقد بالغ هؤلاء في حجم شكواهم بعد أن سمعوا أن قناصل الدول الغربية بدأت تضغط على حاكم مصر للتعويض مما جعل وجهاء المدينة يقسمون بأن جميع مايملكه اليهود في صفد لا يوازي عشر معشار ادعائهم. وهذا مادعا الأمير بشير إلى التنكيل والتشريد والسجن، مما جعل الكثيرين من أبناء المدينة يغادرونها. وقام بنفي ثمانية عشر وجيهاً إلى السجن في (عكا) وفي مقدمتهم:

نائب صفد (عبد الغني النحوي)، مفتي صفد (محمد السلطي)، النقيب (السيد علي)، مصطفى العبدوني، محمد القواسي (القوصي)، محمد بو دياب، علي شرشره، ياسين بن حسين، يوسف الكردي، خليل البيطار وغيرهم. . . .

وقد وجد ممثلو دول (بريطانيا، النمسا، روسيا، بروسيا) آنذاك، فرصة للضغط حيث أن وحدة مصر وبلاد الشام أمر لايروق للدول الاستعمارية منذ

ذاك الحين. وقد عاد مبعوث محمد علي باشا آنذاك من جولته لصفد بتقرير أكد فيه مبالغة اليهود بتقدير خسائرهم، وتشجيع القناصل لهم بذلك موحين اليهم أن الحكومة المصرية ستدفع لهم التعويضات من خزائنها. وفي التقرير التالي الذي صاغه «باغوص الأرمني» مسؤول محمد علي للشؤون الخارجية ما يصور طبيعة الحادثة وإن كُتب بلغة أقرب إلى الركاكة:

أمر منه إلى باغوص بك في ٢٩ رجب ١٢٥٣هـ «قد علمت بنتيجة تقارير القناصل الجنرالية المختصة بمادة سلب يهود صفد، المُقال وقوع ذلك بادلة غير مقبولة، وتصميمهم مصادرة املاك اناس فقراء مسلمي تلك الجهة، الغير مجنوحين فيها، وبما أن قبول رغائب الموما إليهم هذه أمر لا يتصور، ولم يسبق تنفيذ اغراض مثل هذه في مملكة ما، كما هو في إحاطة علمهم، لكن مادام اصدقاؤنا القناصل أصروا وصمموا على ذلك، فتخلصاً من هذه القائلة قد صدرت الأوامر خطياً إلى سليمان باشا (الوالي) ببيع املاك وعقارات هؤلاء الفقراء لتقسيم ثمنها على المدعين كذباً، وتلك الأوامر مرسلة عن طيه لتسليمها إلى القناصل، ليوصلوها بمعرفتهم إلى الباشا الموما إليه».

وعلى الرغم من كل هذه الترضيات للدول الأربعة، إلا أنهم لم يرضوا عن حكومته، واضطروا ابراهيم باشا للانسحاب من بلاد الشام لى مصر وليعود الحكم العثماني من جديد إلى المنطقة. وبعد انحسار الحكم المصري عن منطقة صفد وعودتها تحت النفوذ العثماني، اعلنت مركزاً ادارياً (قضاء صفد). واستمرت هذه التسمية باللغة المتداولة قبيل الخروج بمعنى صفد وقراها (قضاء صفد). وعين لها (سعيد بك شهاب) أول قائممقام. ثم تولاها (موسى كاظم الحسيني) الذي لمع اسمه كزعيم للمناداة بالاستقلال ورئيس الوفود المتفاوضة مع بريطانيا في مطلع عهد الاحتلال البريطاني (١٣٠٤ ـ ١٣٠٨هـ). وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني، انشئت في صفد عام ١٩٠٠م المنشآت التالية:

برج الساعة في القسم الجنوبي وفي موقع كان يُسمى (السراي) الموروثة من العهد التركي وكانت مركزاً للبوليس وسجناً. ثم الحق به جامع وكان البرج

يستعمل مئذنة للصلاة التي يقيمها المساجين. واستمرت المنطقة حول السرايا تدعى (باب السور). ثم انشئت مدرسة الزاوية الابتدائية على طريق (الرجوم) في المنطقة الجنوبية من صفد. وكانت المساحة أمام السرايا، باحة للاحتفالات بالاعياد والمهرجانات[٣].

من أقوال الرحالة بصفد أثناء هذه الحقبة:

تحدث الرحالة (فولني)[٤] عن صفد في القرن الثامن عشر بما يلي وذلك أثر مروره بها خلال رحلته إلى بلاد الشام: «وعلى مسافة سبعة فراسخ من بحيرة طبريا، قرية صفد القائمة على سطح جبل، وتعد صفد مهد السلطة التي توصل إلى احرازها الشيخ ظاهر العمر. وكان فيها معهد لتعليم الصرف والنحو والفقه والتفسير. واليهود الذين يعتقدون أن مسيحهم سيجعلها قاعدة ملكه، رغبوا في سكناها، فاستوطنها خمسون أو ستون أسرة منهم. غير أن الزلزلة التي حدثت عام ١٧٥٩م - ١١٧٣هـ تركتها خراباً. والاتراك الذين يتشاءمون منها قد اهملوها وامست قرية لاشأن لها». وفي محل آخر يذكر (فولني) بأن «أراضي صفد ينبت فيها القطن يحاكي قطن جزيرة قبرص»[٥].

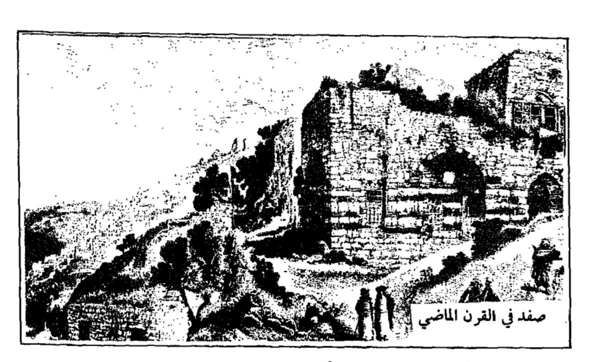
أما الرحالة السويسري (لوديغ بيركهارت) فقد أتى على ذكر صفد عام ١٨١٢ حين مر بها قائلاً: «.. وصلنا إلى صفد وهي بلدة مبنية باتقان، وتقع حول تل في أعلاه قلعة من إنشاء المسلمين ويبدو أن القلعة قد أدخلت عليها بعض الترميمات الشاملة خلال القرن الأخير. وهي محاطة بسور حصين وخندق عريض،

---

٣ - ساحة العيد للأطفال حيث تباع الحلوى التقليدية وحلوى العيد «حلاوة جوزية» وحلاوة قرع وسمسمية - وقضبان السكاكر الملونة والتفاح المغطى بالسكر الملون بالأحمر وتفرز فيه عود ليسهل حمله وامتصاصه من الأطفال، ثم الأراجيح والدواليب وعربات تجرها الدواب أو الخيول. وعصراً أو مساء، كان الأهالي يمشون حول الساحة لرعاية الأطفال أو للنزهة. وكانت المدينة قد خرجت لاستقبال بعض المجاهدين من أبناء دمشق وحماه وطلائع جيش الانقاذ يوم وصولهم هذه الساحة.

٤ - مصطفى الدباغ - بلادنا فلسطين، ص ١١٠.

٥ - سورية في القرن الثالث عشر، ٢/ ٣٩ - ٤٠، ترجمة حبيب السيوفي


صفد في القرن الماضي

وتشرف على منظر واسع يمتد فوق الأراضي المتجهة إلى عكا، وحينما يكون الطقس صافياً يرى البحر منها. هنالك قلعة أصغر منها عند سفح التل حديثة البناء ولها أسوار شبه متهدمة، والبلدة مبنية على عدة تلال منخفضة تقسمها إلى أحياء مختلفة. . والبلدة بكاملها تضم حوالي ستماية بيت فيها ماية وخمسون بيتاً يملكها اليهود، وثمانون إلى مئة بيت تخص المسيحيين. وفي عام ١٧٩٩م نهب المسلمون الحي اليهودي وذلك بعد انسحاب الفرنسيين من عكا، وقد احتل الفرنسيون صفد مع حاميتها التي تقدر بحوالي اربعمائة رجل كانت مخافرهم الأمامية تصل إلى جسر بنات يعقوب. . ويحكم البلدة متسلم تشمل منطقته حوالي اثنتي عشر قرية. وتتألف الحامية من مغاربة (قرى بكاملها بقيت ملكاً للمغاربة ـ ماروس) وتزوج القسم الأكبر منهم هنا. وهم يزرعون جزءاً من الأراضي المجاورة. والبلدة محاطة بمزارع زيتون واسعة وكروم عنب. ولكن مهن الأهالي الرئيسية هي الصباغة بالنيلة ونسج الأقمشة القطنية. وفي كل يوم جمعة تُقام سوق يؤمها جميع الفلاحين المجاورين. ولم يكن في صفد خان للمسافرين وليس معي أية رسائل لأي شخص في البلدة لذلك اضطررت أن آوي إلى مقهى عام»[٦].

٦ ـ رحلات سبيركهارت ـ ٢/ ٥٢ ـ ٥٣، عمان ١٩٦٩.

الفصل الخامس

اليهود في صفد

كانت أحياء صفد تُسمى قبل الاحتلال إما بحسب الموقع الجغرافي، أو تنسب إلى الطائفة الدينية أو الاجتماعية استمراراً للتوزع الاجتماعي أيام الحكم العثماني؛ أو إلى العائلة الكبيرة، أو مزار أو جامع أو سوق. فكانت الاحياء الرئيسية حارة القلعة، حيث كانت القلعة عبارة عن تلة دائرية في وسط المدينة تنحدر جوانبها نحو الوديان لترتفع بعدها في سفوح الجبال المحيطة أو تنحدر نحو الوديان، فكانت جوانبها القريبة تُسمى عرفاً (بحارة القلعة) في جنوبها، وفي شمالها كانت (حارة اليهود) لتنحدر بعدها إلى وادي عين الجن وبساتين عين الزيتون وعين الوحوش المطلة على وادي الطواحين، أو وادي الليمون. وعلى سفح جبل كنعان والجزء المسمى منه جبل (الديابية) أو بيت أبو دياب، أو حارة الاسدي في الشرق، والجزء الآخر منه يسمى (حارة الأكراد) ربما نسبة إلى جيوش المماليك واستقرارها هناك مقابل القلعة، وفي الوادي الجنوبي حيث تقع القلعة، تقع (حارة الصواوين) وكان أبناء صفد ينسبونها إلى خيام صلاح الدين أحياناً، أو خيّام الظاهر بيبرس في حين آخر، وفي جنوبها وباتجاه بحيرة طبريا تقع (حارة الجورة)، ثم إلى السفح المقابل لجبل كنعان حول السرايا تقع (حارة آل الخضرا) نسبة إلى إحدى أسر صفد لكبر عددها. وكذلك (حارة الرجوم) جنوباً حيث يقع المستشفى والمدرسة الثانوية والبيوت الجديدة الملحقة، ثم تأتي (حارة الوطاة) إلى الغرب وعلى السفح المنحدر

نحـو (وادي الـطواحـين) والمطل على جبل الجرمق والزبود في الغرب، وبعض أقسـامهـا يُنسب إلى الأسر مثل حارة آل السلطي، وحارة آل الخليفة وحارة آل البيطار وآل سعد الدين، وآل الحاج سعيد وآل سويد.

وتبتدىء (حارة الوطاة) حول السوق الرئيسي وإلى الجنوب الغربي، ثم حي (آل الحاج سعيد) أبو عبد الرحيم، إلى الشمال الغربي بجوار (حارة اليهود) وفي الطريق إلى الجنوب حول الجسر الوحيد في البلد يقع (حي آل قدورة) من كبريات الأسر عدداً، وبعدها تنحدر حارة النصارى على طريق حارة الوطاة حيث الكنيسة والأسر المتبقية بعد هجرة اكثرها إلى امريكا.

أما حي اليهود، فيقع القسم الأعلى منه على انحدار شمال القلعة ثم الشارع الـرئيسي حيث الحـوانيت والمقـاهي ومواقف السيارات، ثم يأتي الحي الشعبي القديم والضيق بأزقته، والبيوت التي هي أقرب إلى المغاور أو بعض المعابد اليهودية والدكاكين الصغيرة التقليدية (قماش، مواد غذائية، حرفيين).

تقول الموسوعة البريطانية واليهودية بأن الرحالة (Benjamin of Tudela) قد زار صفد عام ١١٧٠ ـ ١١٧١م، ولم يعثر على أي وجود يهودي في تلك المدينة. إلا أنـه لم تمض قرابـة خمسـين عامـاً حتى ازدهرت مستوطنة يهودية تحت حماية المماليك. . وبلغ عدد العائلات اليهودية (بداية القرن الرابع عشر ـ ١٤٨٠م) نحو ٣٠٠ عائلة في صفد، وقراها المحيطة بها. وازداد هذا العدد في نهاية حكم المماليك بعـد وصـول الفارين اليهـود من اسبـانيا عام ١٤٩٢م. ثم ازداد تواجد يهود السفارديم بعد الفتح العثماني للمنطقة عام ١٥٦١م.

وفي القرن السادس عشر، وحسب احصاءات العهد العثماني، فقد بلغ عدد العائلات التي دفعت الضرائب ١,٩٠٠ عائلة منها ٧١٦ عائلة يهودية، ثم بدأت العائلات اليهودية ترحل عن مدينة صفد عام ١٧٥٩م بعد الزلزال الذي هدم أغلب أجزاء المدينة، ولم يبقَ هناك سوى ٥٠ عائلة سفاردية. «ثم جاء زلزال عام ١٨٣٧م والذي أصاب معظم المدينة بالدمار ليجبر من تبقى على قيد الحياة من اليهود على الرحيل باتجاه الخليل».

وتتحدث الموسوعة اليهودية عن ظروف اليهود خلال الحرب العالمية الأولى تقول: «تقلص عدد اليهود في صفد بسبب الجوع والأمراض . . . أما السكان العرب والذين يعتمدون على التجارة والتبادل التجاري والزراعات الاساسية فلم يطالهم ذلك الأمر . ثم وقعت صفد تحت الانتداب البريطاني في ١٩١٨/٩/٢٨ ، وكان عدد اليهود فيها آنذاك ٢,٩٨٦ نسمة ثم تقلص هذا الرقم إلى ٢,٤٧٥ نسمة، وإلى (٢٠٠) نسمة عام ١٩٤٠ مقابل (١٢,٠٠٠) عربي كانوا يسكنون صفد. وبقي اليهود يعيشون في حي ضيق في الشمال والشمال الغربي من المدينة إلى أن انسحبت القوات البريطانية من صفد في ١٩٤٨/٥/١ . وقام اليهود بشن عدة هجمات على المواقع العربية في ١٠ ـ ١٩٤٨/٥/١١ واستولوا عليها بالاضافة إلى القلعة. وتبع ذلك إخراج كل السكان والقوات العربية من البلدة والتي أصبحت مدينة يهودية بالكامل . » .

وتضيف الموسوعة البريطانية التي اعتمدت في روايتها على ماجاء في الموسوعة اليهودية، بأن «مدينة صفد كانت مركزاً لمذهب يهودي يؤمن بالتصوف (الاتحاد بالرب) (Kobbalists) وأصبح له اتباع في انحاء العالم». واعتبر اليهود بأن صفد مدينة مقدسة لهم لاعتقادهم بظهور المسيح فيها مجدداً.

وكان لدى العرب في فلسطين شعور غامض متناقض تجاه يهود صفد: فمن ناحية هم شرقيون من (اليهود العرب) الذين ينسجمون اجتماعياً مع غالبية السكان. بالاضافة إلى مظاهر الفقر والتأخر في الحي اليهودي نفسه وذكرى تفوق العرب في حالات الصدام ولا سيما ثورة ١٩٢٩م؛ وما سبقها من احداث وما أعقب ذلك من تطورات. فمن بين الثلاثة الذين أعدموا في أعقاب ثورة ١٩٢٩م، كان أحدهم من أبناء صفد المتعلمين. وكانت قصص الهجوم على الحي اليهودي في إثر اعتداءات اليهود على حائط البراق في القدس حية في الثلاثينات والاربعينات. وكان الهجوم على الحي اليهودي يخفي التناقض ين العرب واليهود ويفجر تراكماً من الأحداث ولا سيما بروز النشاط الصهيوني وافتضاح اهدافه الخفية مثل تدفق المهاجرين وبناء المستعمرات، بالاضافة الى ممارسات المنظمات

الارهابية، وإدخال عد من الخفراء اليهود في سلك الشرطة الفلسطينية بحجة حماية المستعمرات، واكتشاف مخازن اسلحته في الاحياء اليهودية والمستعمرات.

وكما ذكر محمود العابدي في كتابه[1] بعد أن تم تعيينه مديراً لمدرسة صفد الابتدائية عام ١٩٣٣: «وبحكم عملي الذي يقتضي أن اتعرف أحوال الناس الذين أعيش بينهم، ظهر لي أن لكل بيت سجيناً على أثر حوادث ١٩٢٩ فاصبحت المدينة تعاني من أزمة اقتصادية حادة».

وفي ثورات ١٩٣٦ - ١٩٣٩، الموجّهة أساساً ضد الاستعمار البريطاني ومؤسساته العسكرية بخاصة، كانت لاتخلو من الصدام مع الاحياء اليهودية أو مؤسساتها. وكان هنالك شبه اقتناع في أحداث التقسيم عام ١٩٤٧، واشتداد التصادم بين العرب واليهود، أنه في حالة رجحان كفة الصهاينة فإن الانتقام سيكون من مدن مثل صفد، نابلس، الخليل، وبأسلوب وحشي، وأن صفد على رغم الأكثرية الساحقة للسكان العرب في قضائها، كانت في مشروع التقسيم الذي أقرته هيئة الامم المتحدة من نصيب اليهود نظراً لاعتقادهم (بقدسيتها) في توجهاتهم.

كان أهل صفد، يعرفون عن اليهود اجتماعياً كما يعرفون عن أنفسهم بسبب صغر المدينة وشيوع كثير من العادات والتقاليد: فالالبسة كانت متشابهة حتى أن منهم من يعمل بالقرى كان يعتمر (الحطة والعقال) لباس الرأس الفلسطيني التقليدي. وكان لباس النساء (محتشماً) واللغة الشائعة هي (العربية) في التداول مع بعضهم، وكنا نطلق عليهم اسم (اليهود العرب). وكانت النظرة إليهم نظرة الفئة المسالمة القليلة المستضعفة الخبيرة بالتجارة والتعامل المالي حيث يقع البنك ويشرف على الاستيراد والتصدير مع باقي المدن الفلسطينية الأخرى.

وكان المظهر الاجتماعي عن مدى التآلف مع (اليهود العرب) أي الشرقيين يبدو جلياً في أيام العيد الكبير، حيث يمتنع اليهود عن العمل وحتى الطبخ، فكان المرء يشاهد التنافس بين الأسر العربية في حمل الصواني المصنوعة من القش أو

---

١ - صفد في التاريخ، محمود العابدي، ص ١٤١.

الصـدور المصنوعة من النحاس وهي تحفل بمختلف أنواع الأطعمة والحلويات لتقديمها إلى المعارف والأصدقاء من الأسر اليهودية لتعود محملة بصناديق الخبز الصبـاحي (والـذي ندعوه بالعامية المأخوذة عن العبرية ـ المصّو) وكذلك كانت حفلات الأعراس العربية تستعين بضارب العود والمغني اليهودي، كما تستعمل وسائل النقل مع بلدان فلسطين والجليل بخاصة. وكانوا أيضاً يقومون بزيارة الأسر في أعياد المسلمين وكان يروق لبعض الشباب قضاء مجالس الشراب والسهر في بعض الحانات لديهم.

لكن هذا الهـدوء لم يكن ليخفي مشاعر التناقض ولا سيما في ضوء تطور الأحـداث السياسية، وفي إبـان تنـامي الحـركة الثورية العربية، وصدامها مع البريطانيين وتنامي الحركة الصهيونية وافتضاح أهدافها في فلسطين. ثم قدوم جماعات اليهود والمهاجرين من الغرب، وجلهم في سن الشباب ذكوراً وإناثاً، وهم يجوبـون المنـطقة ويتعرفون على طرقاتها الرئيسية والفرعية ومواصلاتها مع القرى المحيطة ومعالمها الطبيعية الرئيسية، ويستريحون في المستعمرات التي كانت تنتشر كطوق حول البلدة، ويتعـرفـون أيضـاً على عقد المواصلات مع القرى العربية الكثيرة والمنتشرة في قضاء صفد. وكان البريطانيون يغرسون في أذهاننا عن هذه الظاهرة التي تكثفت أثناء الحرب العالمية الثانية اسم (السواح). إلا أن لباسهم كان أقرب إلى التقشف العسكري وكثيراً ماكنا نستوقفهم للحديث معهم بعفوية عما أتى بهم إلى هذه الـديار وما علاقتهم بها. ثم يتطرق الحديث إلى فلسطين وتاريخها وعلاقة كل من العرب واليهود بها، لتلمس لديهم اهتماماً سياسياً مركزاً وواضحاً.

وكـانت تجري مع هؤلاء قبل الحرب الثانية (العالمية) صدامات فردية في جرود صفـد حيث يتـوزع بقايا المجاهدين من ثورات (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) لكن بأسلوب عفوي ودون خطة واضحة منظّمة.

ولقد كان يلاحظ بين (اليهود العرب) السكان في بلدة صفد، نماذج أخرى منهم فكان من المهنيين: الأطباء والمهندسين الذين قدموا من ألمانيا وكذلك بعض رجـال الأعـمال الأوروبيين القـادمين من مدن أخرى مثل تل أبيب أو حيفا أو

القدس. إلا أن هذه المظاهر كانت لتثير الانتباه في وجود عدد ممن كنا نطلق عليهم بالعامية الدارجة اسم (السكناج) والذين يعتمرون قبعات سوداء من الفراء ومعطفاً أسود ويطيلون لحاهم إضافة إلى السالفين حتى يتجدلا، وكثيرا ما يحملون الكتاب الديني ليقفوا في بعض المواقع (على أبواب المعابد مثلاً) لتلاوته وهم يتحركون إلى الأمام والخلف. أما رجال الدين التقليديين داخل المعبد فكنا نشاهدهم وهم يضعون (شالات) بيضاء على أجسامهم إلى جانب الطاقية البيضاء.

أما (السكناج) فهم قادمون من شرق أوروبا ويقصدون البلدة اعتقاداً منهم أن «المسيح القادم في آخر الزمان سيهبط في صفد» بينما يعتقد (السفرديم) أن المسيح سيهبط في طبريا ولذلك اتخذوها دار إقامة لهم. وكانوا يتحدثون عن قدسية المدن في تاريخهم مثل القدس وطبريا والخليل إضافة إلى صفد. وفي اعتقاد بعضهم أن النبي يعقوب وفي المنطقة المسماة الآن جسر بنات يعقوب قد ترك فيها (بيت الأحزان).

وقصة المطبعة التي يبالغ الصهاينة في الحديث عنها كأول مطبعة في المنطقة (وقد سبق الحديث عنها في الموسوعة اليهودية) فإن لها ظروفاً تحتاج إلى توضيح، فقد وَفدَ على القسطنطينية وذلك بعد فتحها على يد (محمد الفاتح) عدد كبير من اليهود القادمين من شرق أوروبا ثم مس ايطاليا والاندلس. واستطاعوا الحصول على اذن بتأسيس مطبعة في عهد (بايزيد الثاني) ابن محمد الفاتح، مع أمر بتحريم استخدام المطبعة في السلطنة على المسلمين.

وبقي هذا الأمر سارياً مدى ثلاثة قرون حتى ١٧١٦م حين أجاز السلطان طبع الكتب في بعض الموضوعات. وفي عام ١٨٠٧م صدرت الفتوى باجازة طبع العلوم الشرعية والدينية عدا القرآن الكريم.

ولقد نشطت المطبعة اليهودية في القرن السابع عشر في صفد. كما أسست عدة معابد يهودية تعيش على التبرعات القادمة من أوروبا لتدريس عدد من رجال الدين واعانتهم كي يدعوا إلى انتظام عودة السياح إلى صفد. ويروي (د. طومسون) في كتابه THE LAND AND THE BOOK أو (الأرض والكتاب) قصة الزلزال الذي آتى على مدينة صفد عام ١٧٥٩م وسبَّب الدمار والخراب. لذلك لم

تُصب مطبعة صفد النجاح كمطبعتي (استنبول والقاهرة) اليهوديتين، ولم تُعمر سوى عقود قليلة من الزمن في القرن السادس عشر. ولقد تمت طباعة كتاب (ملخص تاريخ اليهود) باللغة العربية ولكن بأحرف عبرانية فقد كانت لغة اليهود في العراق والاندلس هي العربية.

ويضيف مؤلف هذا الكتاب (د. طومسون) بعض العادات التي شاعت بين يهود صفد في إبان زيارته وتجربته في صفد، وتبعاً لسريان بعض المعتقدات فيقول: «لا يجوز لليهودي أن يحمل يوم العطلة حتى منديل الجيب، إلا إذا كان داخل اسوار المدينة. ولما لم يكن حول صفد سور، فقد نصبوا اعمدة في نهاية الطرق الخارجية من المدينة ربطوا بينها في سلسلة رمزاً للسور. وقد سخرت من مرافقي اليهودي الذي صحبني إلى خيمتي بين اشجار الزيتون في شمال المدينة، فعندما وصلنا إلى مكان السلسلة بين الأعمدة وجدها مقطوعة فتفاءل وقال: الآن يجوز لي أن أذهب خارج المدينة وبجيبي حاجياتي لأنني لم أزل غير متجاوز السلسلة ولم أمّر عبر السور بعد». «وقد رجاني يهودي آخر أن أقوم بتدوير (تعبئة) الساعة في يوم عيده فقد قال أنه حرام علينا أن نعمل في أيام أعيادنا إذ يجب أن نتفرغ للعبادة».

وفي قرية (ميرون) على سفح الجرمق، كان يسكنها العرب فقط وجلهم من عشيرة عربية تعود إليها الأسرة الرئيسية في القرية وهي (آل كعوش). وقد حدثني كثير من ابنائها عن الآثار اليهودية في القرية ووجود أحد فقراء اليهود لرعايتها ويعيش من خلال أعمال زراعية محدودة حولها. وتضم هذه القرية قبور بعض الاحبار اليهود الذين أصبحت زيارتهم عيداً اجتماعياً سنوياً. وكل ما نذكره نحن عرب صفد أن هذه المناسبة كانت تدعى (عيد الشعلة) حين كانت تتجمع حشود كبيرة من مختلف مناطق اليهود القادمين بالسيارات العامة. وكنا نلحظ اهتمام الشباب العربي بالمناسبة كتقليد اجتماعي وفرصة لمشاهدة الاحتفال حتى كان عددهم يزيد غالباً على عدد اليهود بسبب قرب (ميرون) من صفد، وإحاطتها باعداد كبيرة من القرى العربية في الجليل.

وكان القادمون يفترشون سفوح جبل الجرمق ومغاوره وبعضهم يحل لدى سكان القرية وجلّهم من العرب. وتقام حلقات الرقص والدبكة وتغمس المشاعل

في جرن مملوء بالزيت تمهيداً لاشعالها، ويتم اختيار صاحب الشعلة الأولى عن طريق المزاد العلني وبدفع أكبر مبلغ . وكانت هذه اللقاءات لا تخلو من أجواء المتعة لشباب العرب واليهود[٢].

وبعد تطور التناقض العربي - الاسرائيلي في فلسطين في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وقبيل التقسيم وبعيده، اشتدت حرارة النزاع في صفد، وبدأت ردود الفعل العربية تأخذ شكلاً من الاستعداد والشعور بالخطر. وامتثلت البلدة إلى نداء المقاطعة الصادر عن الهيئة العربية العليا في فلسطين. وأخذ أفراد من شبابها يتطوعون لمراقبة تنفيذ مقاطعة البضائع اليهودية التي كان الحي اليهودي سوقاً رئيسياً لها ولاسيما في الألبسة المصنوعة محلياً في فلسطين. وأخذت مظاهر التوتر تسود وتظهر بعض قطع الاسلحة الفردية بأسلوب عفوي بعيداً عن الخطة والتنظيم.

ويذكر الرحالة (طومسون) أيضاً، بعض القرى التي زارها وهي قرى عربية قبل الاحتلال مثل (الجفى - يارون - كفر برعم) وفي هذه الأخيرة كان يسكنها عرب مسيحيون في غالبيتهم تم اجلاؤهم بعد الاحتلال. وتوجد آثار للكنيس يضم قبور الكهنة من اليهود تهدمت اعمدته بفعل الزلزال عام ١٨٣٧م.

وإضافة إلى ما تقدم، فإن (الجليل) كان موطىء قدم الحركة الصهيونية في نهاية القرن التاسع عشر، ومجال المبادرة لتحقيق الحلم الصهيوني ببناء المستعمرات بهدف ربط المهاجر اليهودي بالأرض من ناحية، ولتكون هذه المستعمرات (ذات الطابع التعاوني والاشتراكي)[٣]، حلقات من سلسلة قواعد عسكرية تحيط بمدينة

٢ - وقد ورد ذكر (ميرون) في مطلع القرن العشرين (١٩٠٦م) في مقالة كتبها رجل دين رافق مطران صور الذي كان يرعى ابرشية بلاد بشارة (جنوب لبنان وشمال فلسطين) مجلة الشرق، المجلد ١٠ ص ٩٩٣، بقلم الخوري ابراهيم الحرفوش، ١٩١٧.

٣ - هنالك آراء مختلفة حول طبيعة هذه المستعمرات (كيبوتس) فقد كانت بداية الهجرة اليهودية تلح على استقدام الشباب الذين هم في سن الانتاج والقتال. . وكان من أهداف هذه المستعمرات تربية التقشف العسكرية في المستعمرات والاستعداد لتحقيق الحلم الصهيوني مع أن أكثر هذه المستعمرات كانت مؤسسة من قبل كبار الرأسماليين اليهود في الغرب.

صفد وتشرف على المفاصل الاستراتيجية للمواصلات بين القرى العربية الكثيرة حول المدينة.

ففي الجليل، كانت بداية الاستعمار الاستيطاني بشراء قسم من أراضي قرية (الجاعونة) من اموال (البارون روتشيلد) الذي قدم للمهاجرين من رومانيا بعد استقلالها عن تركيا، مساعدات للاستقرار في هذه القرية التي اطلق عليها اسم (روشبينا) على الطريق بين صفد وطبريا، وصفد ومنطقة الحولة وقراها العديدة. ثم تبرع البارون (روتشيلد) بنفسه بمبلغ لبناء مستعمرة (المطلة) عام ١٨٩٦م، التي تكرر ذكرها حديثاً في المحاولات النضالية لنشاط الفدائيين العرب، ولوقوعها على الحدود مع لبنان. وتوسّع البارون في تأسيس المستعمرات في الجليل حول حيفا وطبريا وصفد. وأنشأ لجنة خاصة للإشراف عليها بعد أن تقدم به العمر.

وفي جنوب صفد، تقع قرية (عكبرة) التي كانت مسالكها وعرة لوقوعها على امتداد (وادي الليمون) المتجه إلى طبريا. ويقول مؤرخو المنطقة من اليهود بأنها كانت ملاذاً لهم أيام الرومان. وفي أيامنا كانت (عكبرة) قرية عربية واكبر أسرة فيها هي (آل الميعاري) وكان ابناؤها يدرسون المرحلة الابتدائية المتقدمة والاعدادية في مدارس صفد.

الفصل السادس

الحرب العالمية الأولى والانتداب البريطاني

صفد في مطلع القرن:

كانت الظروف العامة التي تحيط بصفد تماثل غيرها من البلدان العربية التي خضعت للعثمانيين، بالاضافة إلى الخصوصية المحلية من طبيعة الموقع الجغرافي والتجانس السكاني داخل البلدة. أما الجيل الذي عايش ظروف الحرب العالمية الأولى أو قبلها، والأفراد من أبناء البلدة الذين أسهموا كمجندين في الجيوش التركية في حروبها في البلقان أو ضد روسيا القيصرية، فقد كانت ظروف سفرهم وانقطاع اخبارهم ثم عودتهم وقصصهم مازالت رائجة، ترويها أحاديث الجدات والمسنين الذين تملأ رواياتهم الفراغ الذي تعيشه البلدة الصغيرة شبه المعزولة عن خضم النشاط التجاري أو الزراعي أو الصناعي في مدن فلسطين الأخرى المزدهرة، كالعاصمة (القدس) أوميناء حيفا ويافا أو المدينة اليهودية الحديثة (تل أبيب).

كما أن الأفراد الذين أتيحت لهم الدراسة في (استنبول) وعلى قلتهم، كانوا على صلة مع الجمعيات العربية السرية والعلنية، تتوزعهم آراء بين اللامركزية في نظام الامبراطورية العثمانية وبين الاستقلال والنزوع العربي القومي الوحدوي للمشرق العربي عموما، دون تحديد أو توضيح منهجي، مثل علي رضا النحوي، صبحي الخضرا، عز الدين الحاج عيسى.

ثم دخلت صفد وبقية مدن فلسطين في ظل ما يُسمى (الانتداب البريطاني) ولعل أبرز ماجاء في وصف البلدة آنذاك ما احتواه كتاب «ولاية بيروت ـ القسم الجنوبي» للمؤلفين ـ رفيق التميمي وبهجت الحلبي ، ففيه وصف لعمران البلدة من ناحية الاحياء وتوزعها والبيوت والأزقة والمياه والأشجار، وكذلك إسماء المواقع والبيوت الخاصة بالعبادة والطرق ومحلات النزهة ، إضافة إلى الينابيع مع إشارات متفرقة إلى العادات والتقاليد.

«وخلاصة القول إن مدينة صفد في جميع أحوالها عرش البدائع السحار. . وكما أن نسيم ربيعها يشبه مروحة تنعش الأرواح ، فإن صفير أهوية الشتاء الشديدة وترددها بين الجبال بعظمة وأبهة تروق في النفوس، فصيف صفد وشتاؤها جميلان وربيعها وخريفها بديعان منيران . . » . .

وقد ورد في الكتاب السنوي لولاية بيروت سنة ١٩٠٨م، أن عدد سكان صفد قد بلغ (١٠٠٠٣) نسمة منهم ٣٥١١ يهودياً. أما تسمية الأحياء لدى المؤلفين فهي مطابقة للأسماء التي كانت معروفة لدينا قبل الاحتلال وسنأتي على ذكرها مع بعض التوضيح .

وفي وصف الأبنية يذكر المؤلفان أن معظمها قديم ماعدا عشرات البيوت . الحديثة الموزعة على سفوح تلة القلعة وجبل كنعان والمنطقة الجنوبية قرب المستشفى الحكومي (حارة الرجوم). ويشارك المؤلفان ماأورده محمود العابدي وغيره من زائري البلدة في وصف صفد من صعوبة الطرق الضيقة (الأزقة) يعني البيوت بسبب طبيعة الانحدار، فقد قال العابدي : «إن الرقص على السلالم أسهل من المشي في طرقات ومنعطفات صفد». وإلى جانب الطرق المعبدة المحدودة في المدينة والتي تبدأ من مدخلها وتدور حول القلعة لتصل إلى المستشفى في الجنوب، «توجد طرق عمودية أو منحنية وجميعها رديئة جداً. وبالرغم من أن كل الطرق الصغيرة في صفد مفروشة بالبلاط[1]، فإنها صعبة المرور. ومداخل هذه الطرق بين الجادات الكبيرة

---

١ ـ هو بلاط حجري رُصفت فيه معظم الدروب بين الأحياء، أو بين البيوت ولا تجرفها سيول الشتاء الغزيرة.

خطرة ومهلكـة، فترى على الـطريق بضـع درجات صغيرة وضيقة تشبه السلالم الحجرية في الدور الصغيرة، وهذه إما أن تكون طريقاً أو مدخلاً للطرق».

ويذكـر المؤلفـان أن ضيق العيش حدا ببعض الأفـراد إلى الهجـرة باتجاه أمـريكـا. وكنـا نسمـع عن قصص هؤلاء وثراء بعضهم من خلال مراسلاتهم لذويهم. . . وإن كان معـظم المهـاجـرين من نصـارى البلدة كما يروي مؤلفـا الكتاب. ثم يتحدثا عن نشاط اليهود التجاري في البلدة، أما طائفة الكهنة فقد كانوا في حالة تعيسة جداً لاعتقادهم بأن المسيح سيهبط في آخر أيامه في صفد فيؤمها الآلاف منهم ليموتوا فيها لا ليعيشوا فيها وفي محيطها. . فتراهم يشكلون أقـذر الـطبقات وأحطّها في هذه المدينة، شعورهم طويلة، ووجوههم لا تعرف النظافة والماء، وثيابهم قذرة وقبعاتهم قد اسودت من الدهن، يحملون في أيديهم توراة أو تلموداً ولا ينفكون عن تلاوته في الأزقة وعلى الأبواب أو على السلالم، وفي كل مكان يجلسون فيه. ولا يغسلون أيديهم ولا ينظفون دورهم ولا يتركون أحداً ينظفها. ولا ريب أنهم يعتقدون بأن هذا الانحطاط هو علامة الزهد والتقوى. . ».

ولقد لاحظ الزائران نقص موارد البلدية، الذي لايسمح بإقامة المشروعات مع أن اللوائح التنظيمية كانت لا تسمح بأن تزيد الرواتب عن خُمس الدخل، إلا أن معظمه كان يذهب للرواتب. واطلعًا على مشروعاتها الرئيسية آنذاك فكانت بنـاء جسر ومقصف ومـطعم وحديقة عمومية، وكانت تعجز عن إزالة الأكواخ القديمة المبنية في بعض اطراف القلعة.

وعلى رغم الطبيعة الجبلية إلا أن خصوبة أكثر سفوحها ووديانها جعلها تبدو مزدانة بالأشجار المثمرة والبرية، كما أن قضاء صفد اشتهر بانتاج الحبوب مثل القمح والشعير والذرة البيضاء والفول والعدس والحمص ثم الجلبانة. بالاضافة الى (١٥٠٠٠) شجـرة زيتـون تخرج (٧٥٠٠٠) أنة زيت، و(٢٢١٨) دونمًا من العنب تصنـع (٥٠٠٠٠) كيلو نبيذ، و(١٨٠٠٠) كليو خمر(عـرق). وهنـالـك (٨٢٠٠) رأس من الغنم والماعز، بالاضافة إلى الجواميس في الحولة والأبقار في مضارب البدو المحيطين بالبلدة وبعض القرى.

وقـد لاحظ الـزائـران أن أسلوب المعيشة يتراوح بين حياة وتقاليد البداوة (لانتشار قبائل وعشائر حولها تتعامل مع البلدة) ثم البستنة (حياة الزراعة القروية المعروفة في بلاد الشام عموماً) وكانت ضمن البلدة نفسها ولا سيما في الوديان وحول عيون الماء وحتى داخل الأحياء وحول الدور، ثم رعي المواشي ولاسيما في السفوح الخصبـة. إضـافـة إلى دكـاكـين العطارين وبائعي القماش والحائكين للريف والبدو وسكان البلدة. إلا أنهما يذكران بأن الطبقة آلعليا كانت محدودة في بضعة أفراد عرفوا مستوى معيناً من الحياة، أما أكثر الأحياء فكانت تبدو عليها مظاهر الفقر».

ويشير المؤلفان إلى بعض العادات الاجتماعية في مناسبات الأفراح والأتراح والتي سيأتي ذكرها في فصل آخر.

دخل البريطانيون صفد في ١٩١٨/٩/٢٢ بعد هجومهم الكبير داخل فلسطين، وقد وجد المؤلف والمناضل الشهير مصطفى الدباغ[٢] معلومات موثقة من بقايا الانتداب البريطاني وفي احصائيات مختلفة فيقول: «بلغت مساحة أراضي صفد ٣٠٠٢ دونمًا منها ١٠٣ دونمًا لليهود سنة ١٩٤٥. أما عدد السكان فكان عام ١٩٢٢ (٨٧٦١) نفراً منهم (٢٩٨٦) من اليهود».

وفي مصدر آخر[٣]، بلغ عد السكان حوالي تسعة آلاف نسمة منهم حوالي الثلث من اليهود في حين بلغ عدد السكان عام ١٩٤٥ (١١٩٣٠) نسمة منهم (٢٤٠٠) من اليهود. وأشار هذا الزائر (الأب فرديناد كوتل اليسوعي) أنه وجد سوق صفد عام ١٩٢٤ في كساد ملحوظ: «وقد زرت أسواق صفد فكلها حوانيت مفتوحة ولا يكاد يدخلها زبون، أما الصناعة فلا يرغب فيها أحد لكسادها ولكنها محصورة بين صباغ يصبغ وحداد يطرق، وخياط يرقع على النسق القديم، وكذلك ترى الناس في ضيقة عظيمة يلتمسون الاقتصاد». ثم يذكر بعض الأسعار لاهم

---

٢ ـ مصطفى الدباغ ـ الجزء السادس ـ القسم الثاني من كتاب (بلادنا فلسطين) طباعة بيروت ١٩٧٤

٣ ـ الاب فرديناد كوتل اليسوعي ورحلة رسولية في بلاد الجليل الاعلى، مجلة المشرق مجلد ٢١ ص ٦٩٦.

الحاجيات وبالقروش المصرية، كما يتحدث عن «سوق يوم الجمعة للتجارة النشطة».

ويصف الأب (كوتل اليسوعي) مناسبة وطنية رفضاً للانتخابات وفق الشروط التي وضعها المستعمر البريطاني فيقول: «وشاهدت في صفد نهار الأحد الواقع في ٢٥/شباط مظاهرة سياسية التقى فيها المسيحيون حول كاهنهم والمسلمون حول مفتيهم واحتشد جمهورهم مرة في الجامع ومرة في الكنيسة[٤]. وأُلقيت الخطب الحماسية لحث الوطنيين على توحيد كلمتهم والمثابرة على رفض الانتخابات ومقاومة الصهيونية بصوت واحد وإرادة واحدة».

وكانت صفد ملاذاً لبعض قادة الثورة السورية عام ١٩٢٥، بسبب الجوار. وكانت تروى حكايات من لجوء هؤلاء إلى بعض البيوت التي ترتبط بهم علاقات اجتماعية طبقية منذ العهد العثماني وتعي الذاكرة أسماء مثل: القوتلي، ومريود، وبعض الأفراد من الأكراد بدمشق الذين لم يلبثوا أن تعرفوا على من آواهم بعد هجرة أبناء صفد عام ١٩٤٨ إلى سورية ولبنان. وعلقت هذه الحكايات في ذاكرتنا حول تقلبات الدهر والوفاء ومايتخللها من روايات يخلط فيها الخيال بالحقيقة.

ولم تخلُ هذه الحقبة من نمو الحركة الوطنية انعكاساً للممارسات البريطانية في اعطاء حقوق مميزة للأقلية اليهودية في المجال الحكومي والاداري وفي مجالس البلدية على صعيد فلسطين وفي المستويات المحلية. وكذلك أخبار الهجرة اليهودية وتأسيس المستعمرات في الجليل والحديث عن محاولات الوكالات اليهودية المتخصصة لابتياع الأراضي بأساليب شتى من الاغراءات من ناحية، وبشراسة أساليب الاجراءات الحكومية كرفع الضرائب والتصرف بالأراضي (الاميرية) من ناحية أخرى.

---

٤ - استمر هذا التقليد بعد نمو الحركة الوطنية، فقد شهدت صفد في مطلع الاربعينات بعد عودة مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني من منفاه في الخارج، تظاهرة عارمة كان الخطيب الأول في مسجد جامع السوق خوري الطائفة المسيحية في صفد ومن حوله كان الهتاف: «الدولة عربية من اسلام ومسيحية. سيف الدين الحاج أمين وبدنا نحرر فلسطين».

وبدأت مصطلحات جديدة تشيع وتردد يومياً، وكان أقبحها من يحاول أن يكون وسيطاً «سمساراً» بين اليهود والعرب والفتوى بقتله لانها اعتبرت من أعمال الخيانة الوطنية الكبرى. . وبدأت ظاهرة التجمعات الوطنية بين السكان في جمعيات ونوادٍ تحت اسم الكشاف والرياضة، وهي في حقيقتها تجمعات وطنية استمر مؤسسوها يقودون الحركة الوطنية حتى وقت متأخر، بعد اشتداد الصراع بين العرب واليهود. وقد برزت جهود وأعمال هؤلاء في ثورة ١٩٢٩ في فلسطين وكان وقعها في مدينة صفد، والخليل بخاصة، يتجاوز المدن الأخرى.

أحداث صفد لعام ١٩٢٩:

يطلق أهل فلسطين على أحداث ١٩٢٩ لقب (ثورة) وهي من الوقفات التاريخية المعروفة في نضال الشعب الفلسطيني ضد الحكم البريطاني والمخطط الصهيوني في الوقت نفسه، ولا سيما بعد استفحال ظاهرة الهجرة اليهودية بإشراف السلطات البريطانية، ولجوء المنظمات الصهيونية إلى أعمال الاستفزاز، الأمر الذي لم يألفه العرب في فلسطين عبر تاريخهم الطويل فيها، وفي سبيل شحن أبناء الجالية اليهودية، لجأ قادة الصهيونية إلى اللعب بورقة الدين وتقاليده، فجمعت حشداً من مختلف المستعمرات والأحياء اليهودية في فلسطين في آخر شهر آب / اغسطس ١٩٢٩، وبعثت به إلى الأحياء القديمة في القدس، حول حائط المبكى (البراق)، مما اضطر السكان العرب إل مقاومة أعمال الاستفزاز وطرد الجموع اليهودية. وقد شاع الخبر في فلسطين عامة، وكانت ردود الفعل، على الرغم من عفويتها وبعدها عن التنظيم والتخطيط، عنيفة. ولا سيما في مدينتي الخليل وصفد المعروفتين تقليدياً بتبلور المشاعر القومية والدينية. ففي صفد تلقى أبناء البلدة أخباراً مبالغة عن اعتداء اليهود على الحرم الشريف واحراقه مما جعل الناس يسارعون إلى أماكن التجمع التقليدية في الجوامع وساحاتها.

كان التجمع الرئيسي في جامع السوق حيث دخل مسؤول التحقيقات

الجنائية البريطاني ومعاون مدير البوليس (مستر فردي)[٥] واعتلى سلم المنبر وأفاد بأن اليهـود لم يقـومـوا بهدم المسجد بل بحرقه والاستيلاء على (البراق) وستلجأ حكـومـة (صاحب الجلالة) إلى معاقبة الخربين. وهنا هاجت الجموع وزاد من هياجها صيحة قادم من خارج الجامع بأن أحد شبان البلدة قُتل على أيدي الانكليز واليهود[٦].

وبلغ الغضب ببعض الأفراد إلى احراق بعض المحلات والدور وفي الوقت نفسه كانت جموع أحياء الأكراد والجورة والأسدي يتجهون من المدخل الشرقي لحي اليهـود المـواجهة لهذه الاحياء العربية، للتعبير عن غضبهم والقيام بأعمال العنف الجماهيري الغاضب. وكالعادة كان الضباط البريطانيون والشرطة الخاضعة لهم تحاول حماية اليهود، وتقوم باعتقال الاعداد الكبيرة من العرب الذين اضطروا إلى وضع حاجز في مدخل البلدة الرئيسي، حيث كانت ترد النجدات البريطانية من المناطق المجاورة، وتم اطلاق الرصاص على المترجلين أمام الحاجز، مما جعل البريطانيين يلجاؤون إلى اطلاق الرصاص العشوائي على كل فرد عربي في أنحاء البلدة، أو في القريتين المجاورتين (بيريا) و(عين الزيتون).

وقد ورد في بلاغ رسمي عن حكومة الانتداب، أن عدد القتلى والجرحى من اليهـود يقـارب الخمسين فرداً واستشهد برصاص البريطانيين، عدد من العرب بقيت اسماؤهم تتردد على الألسنة ومنهم «العبد ذياب العيساوي من حارة القلعة، والعبد سليم الخضرا من حارة (آل الخضرا) قرب السراي، وعبد الغفور الحاج سعيد من حي (الحاج سعبد) المطل على السوق الرئيسي وفوزي أحمد الدبدوي من حارة (الوطاة)».

ثم لجأت القوات البريطانبة إلى اعتقال مئات الشباب والتحقيق معهم وزج

---

٥ ـ كان ابناء صفد يشيرون إلى (مستر فردي) في الثلاثينات على شهرته بتعذيب الثوار اثناء التحقيق ويتمنون أن تسنح فرصة الانتقام منه وكنا نراه في المدينة بالثياب المدنية. وكثيراً ما كان يقذفه صغار البلدة بالأحجار.

٦ ـ أحمـد طافش، من الشبـاب الـوطنيـين المتعـاونين مع ثوار الجبال ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩، وأمثال هذا كان يطلق عليه في البلدة لقب «شيخ الشباب». .

العشرات في سجن عكا المركزي بخاصة (سجن المزرعة)[٧]. ولمعت اسماء من أبناء البلدة الذين عُرفوا بالمجاهدين أو الثائرين وفي مقدمتهم: محمد عثمان، عبد الله الأصبح (من قرية الجاعونة قرب صفد) وأحمد طافش من حارة الوطاة، ورشيد العبد الله، وهاشم النحوي من حي الأكراد. وحكم بالسجن المؤبد على عدد وفير منهم: جمال سليم الخولي، رشيد الخرطبيل، مصطفى دعيبس محمد مصطفى شريفة، سعيد الشما، رشيد سليم الحاج درويش، وأخوه علي، أحمد صالح الكيلاني، توفيق عبيد، عارف غنيم، وأخوه نايف. . والاسم الذي ذاع صيته من أبناء البلدة وخلّده الشعراء هو (فؤاد حجازي) الذي تسابق إلى المشنقة مع رفيقيه عطا الزير ومحمد جمجوم من الخليل. وكانت المحاكم البريطانية قد أصدرت احكاماً بالأعدام بحق (٢٦) شخصاً عربياً ممن اشتركوا في هبّة البراق كان منهم ١٤ من صفد و١١ من الخليل وواحد من يافا. ثم حُصرت احكام الاعدام بثلاثة فقط، واستبدل الاعدام بالمؤبد بحق (٢٣) شخصاً. وتمت المصادقة على حكم الاعدام بالمناضلين الفلسطينيين الثلاثة ونفذت احكام الاعدام يوم ١٩٣٠/٦/١٧. وعرف ذلك اليوم من تاريخه (بالثلاثاء الحمراء). وكان هؤلاء الثلاثة أولى قوافل الشهداء إعداماً على يدي السلطات الانكليزية.

كان فؤاد حجازي أصغر الثلاثة سناً وأكثرهم معرفة وعلمًا والذي تابع دراسته الجامعية في الجامعة الامريكية في بيروت، أما عطا الزير فقد ولد في مدينة الخليل سنة (١٨٩٥) وكان ملمًا بالقراءة والكتابة وعمل في المهن اليدوية والاشغال الزراعية. وكان ثالثهم محمد جمجوم الذي ولد في مدينة الخليل عام (١٩٠٢) وتلقى دراسته الابتدائية فيها[٨]. وحين أبلغوا قرار الاعدام انشد الثلاثة النشيد الشهير «ياظلام السجن خيّم».

٧ـ عرف عنه عبر تاريخ الاستعمار البريطاني بأنه (معتقل الأحرار) وإلى جانب (معتقل صرفند).

٨ـ الموسوعة الفلسطينية ج ٢، ص ٤٧٨

ولقـد خلّد الشاعر الفلسطيني (ابراهيم طوقان) ساعات اعدام الشهداء الثـلاثة بمناجاة شعرية أصبحت أهزوجة شاعت في كل فلسطين وغدت غذاء روحياً لثوارها يقول فيها على لسان الشهيد فؤاد الحجازي :

أنا ساعة النفس الابية
الفضل لي بالاسبقية
أنا بكر ساعات ثلاث
كلها رمز الحمية
قسمًا بروح فؤاد تصعد
من جوانحه الزكية
عاشت نفوس في سبيل
بلادها ذهبت ضحية

إضراب فلسطين الأكبر عام ١٩٣٦ ومظاهرات في صفد:

يأتي تفـاقم الأحداث بعد عام ١٩٢٩ ليبلغ ذروته عام ١٩٣٦، والذي شكّل قمة الوعي الوطني وبلغ فيه مرحلة متقدمة، وقد أضربت بلديات فلسطين جميعاً ولمدة ستة أشهر، بدءاً من ٢٠ نيسان وحتى ١٢ تشرين. واعتبر هذا الحدث من الحركات الوطنية في تاريخ نضال الشعوب والذي اغنى التراث النضالي لشعب فلسطين العربي في كفاحه، فقد اعلنت حالة العصيان المدني وامتنع الأهالي عن دفـع الضرائب، وانتشر الكفاح المسلح في المدن الريفية وتحول إلى ثورة شعبية شاملة كانت منطقة صفد من مسارحها الرئيسية. وقد تعرضت البلدة وقراها إلى مختلف أنواع الانتقام الاستعماري آنذاك.

وكـان التـوتـر على أشده في هذه السنوات، وخيم جو الثورة والثوار على المجتمع وطال نشاطه وأمسياته. ولم تخلُ هذه القصص الفردية من نسج بطولي

خارق[٩] ومازالت ذاكرة شهود العيان وأحاديث بعض المعاصرين تحمل معلومات قد لاتتفق في التفاصيل لأنها روايات ذاتية، ولكنها تجمع على المعارك وتاريخها ومعظم نتائجها، ومن أهم هذه المعارك (وكان الأهالي يطلقون عليها اسم موقعة):

معركة وادي الطواحين:

مرّ ذكر هذا الوادي أثناء الحديث عن صفد وفي مختلف المراحل التاريخية ولدى أكثر الرحالة والأدباء الذين عرفوا البلدة. وقد أفرد له (صلاح الدين الصفدي) باباً خاصاً ليتحدث فيه عن جمال أشجاره وأزهاره ومياهه. يقع الوادي إلى الغرب من البلدة ويعتبر مدخلاً لها من هذه الجهة. ويُدعى أيضاً (بوادي العيون). أمّا تسميته (الطواحين) فكانت لانتشارها في الوادي الدائم المياه. ويستمد ينبوعه من سفح جبل الجرمق، وعليها تقوم طواحين الحبوب. وكان يقع بين جبلين وعرين فيهما كهوف. وقد تحدث الرواة عن استمرار وجود الحيوانات المفترسة حتى النمور لوقت متأخر (بين العشرينات والثلاثينات). وكان الوادي يشكل طريقاً لكثير من القرى حول الجرمق، وعلى إحدى الطرق المؤدية إلى لبنان وسورية وعلى الطريق بين صفد وعكا.

وكان بعض الملاكين المقيمين في الوادي يقدمون المآوى والمؤن والمعلومات للثائرين، مما حدا بالقوات البريطانية إلى زج أعداد كبيرة من جيوشها على أساس تطويق الثوار في الوادي، واستمر الاشتباك طوال النصف الثاني من نهار ١٣/تموز ـ يوليو، ولم تُعرف الخسائر لدى القوات الاستعمارية. أما من الجانب العربي، فقد

٩ ـ محاولة اغتيال مسؤول التحقيق الجنائي البريطاني قام بها أحد الأفراد. وقد ادعى انه يريد التعاون معه ليعرفه على أخبار الثائرين. كما كان في البلدة أحد أبناء الريف يدعى (الحانوتي) هزيل النظر ضئيل الحجم متعثر في خطاه، ولكنه كان وراء عدة اغتيالات للبريطانيين والمتعاونين. وكان بعد كل حادثة يقطر في عينيه من لبن التين أو المواد التي تلهب العينين وتعكر النظر ويرتب اماكن تواجده مع الشهود بقصص محكّمة.

أما قصص التصدي للقوافل العسكرية البريطانية في الطرقات الوعرة وفي الأودية المشهورة فكانت زاد الحديث اليومي اثناء النهار والليل.

تسلم الأهـالي بعـد تجمهـرهم والحاحهم جثتي شهيدين أحدهما من قرية (عين الزيتون) وهو محمود شحادة، وقد اجهزت عليه القوات البريطانية بعد أن أصيب بجرح بليغ: كما دلت آثار التعذيب في جثته، أما الآخر فهو الشهيد (أحمد خليل) من قرية (بيريا). وخرجت جموع البلدة للاسهام في شرف دفن الشهيدين، كما هو التقليد الفلسطيني في دفن الشهيد الفلسطيني الفدائي في هذه الأيام.

معركة جب يوسف:

تعني كلمـة جب (البئـر) وهـذا الموقع يقع على طريق القوافل بين صفد وطبريا. وقد ورد ذكره في روايات تاريخية ادعت أنه البئر الذي أنزل فيه يوسف بن يعقوب كما نسبت مقام بنات يعقوب[10] قرب جامع الشعرة الشريفة (القريبة من القلعة في صفد) إلى يعقوب وأبنائه ولا سيما أن هنالك كهفاً يحوي عدداً من الحفر المثبتة بالحجر يساوي عدد أبناء يعقوب. ولكن الروايات التاريخية الموثقة تجعل هذا البئر والمقام في نابلس. وكانت طبيعة هذا الموقع تجعله محاذياً لطريق صفد ـ طبريا الرئيسية وطريق صفد ـ الحولة وقراها في الشمال الشرقي. أما الانسحاب من الموقع في بر صفد أمر يسير في المنطقة الوعرة التي لاتصلها السيارات وتؤدي إلى (حارة الـوطـاة) على مسـافـة لا تزيد عن أربعة كيلومترات. وهي معقل المرحوم قائد المجمـوعة (عبد الله الشاعر)[11] وكان بصحبته في هذه الموقعة الشهيد (عبد الله الأصبح). وتمت في هذه الموقعة مهاجمة سيارة نقل يهودية بحراسة سيارتين للشرطة البريطانية. وكثيراً ما كانت المواصلات لنقل المؤن والجنود بين المستعمرات والحي

---

١٠ ـ كان هذا المقام في أيامنا والذي ذكره جميع من زار صفد من الرحالة والمؤرخين، يحوي عدداً من القبور منذ أيام الصليبيين والعثمانيين وفيه آثار أدوات فرق صوفية من اعلام وطبول. وتدور حولـه قصص أقـرب إلى الخرافات. وكان ملعباً لأولاد الحي، ومخبأ مظلمًا لألعاب الاطفال. وبعـض الألعاب التي تتطلب تجنب حرارة الشمس صيفاً. واثناء الحرب العالمية الثانية، كان صبيان الحي يدعون الجنود المسلمين المسخرين مع الحلفاء (من افريقيا والهند وآسيا) لزيارة المقام والتبرع له ثم يجمعه الاولاد لنشاطهم الرياضي في الحي.

١١ ـ تأثر لاستشهاد أخيه في إحدى المعارك واستمر في النضال طوال فترة التوتر في الثلاثينات، ثم استأنفه بعد الحرب العالمية الثانية اثناء الصراع العربي ـ الصهيوني. ومات في مخيم اليرموك بدمشق.

اليهودي في صفد. وقد قتل عدد من اليهود والانكليز وانسحب المجاهدون مع حلول المساء دون خسائر.

معركة وادي سلّان:

امتدت منطقة المعركة بين قرى المغار وكفر عنان وفرادة. وكانت بقيادة نايف غنيم ضد قوات بريطانية ـ صهيونية مشتركة تعرض فيها المجاهدون لقصف من الطيران وكانت خسائر الطرفين مرتفعة نسبياً.

معركة الحقاب:

وتقع في الطريق البري الجنوبي ـ الغربي بصفد حيث مجرى (وادي الطواحين) نحو بحيرة طبريا، وهي انحدار جبلي وعر وشاهق كانت صخوره وكهوفه مأوى للطيور الجارحة، ومناطقه المجاورة مرتعاً لحيوانات مفترسة من ذئاب وضباع وثعالب. ولقد تناهى إلى السلطات البريطانية وشاية عن قدوم أسلحة ومجاهدين من دمشق عبر (البطيحة) وهدفها الوادي قرب الحقاب، وكان ينتظرها فصيل من الثوار بقيادة (عبد الله الشاعر) فجرى تطويق المنطقة واستخدمت القوات البريطانية نيران المدفعية الثقيلة بعد أن سدت منافذها، وأبى المجاهدون الاستسلام، فسقط عدد كبير منهم عرفت أسماء بعضهم فيما بعد:

أحمد الحاج ياسين، خليل سحماني، محمد عرابي، سليم الحاج عثمان، إبراهيم الشاعر، حسن قدورة، وتم أسر بعض الأفراد منهم فؤاد سعد الدين، محمود حسان، حسين الغريزي، وتم اعدام الآخيرين في سجن عكا المركزي. وبقيت البلدة تردد (مواويل) الأهازيج البطولية (للغريزي) وهو يصعد حبل المشنقة برباطة جأش أثارت احترام جلاديه، وأصر على كتابة نضاله البطولي المتفائل ليبعث بها إلى ذويه ورفاقه في الجهاد. وكان من الناجين من أبناء البلدة: عطا محي الدين، عطوة الشاعر، شحادة دوّاه، عبد الله الشاعر.

ثم وقعت بعض المعارك المتفرقة قرب جبال صفد، وقريباً من مرتفعات جبل كنعان، شرق البلدة حيث كان يقوم عبد الله الشاعر مع فصائل من المجاهدين بنصب كمائن للسيارات اليهودية التي تحرسها الناقلات البريطانية طوال صيف ١٩٣٦، وتنقل في مواقع مختلفة تسمح طبيعتها بشن حرب العصابات. وفي هذا

الصيف من عام ١٩٣٦ ، قامت وحدة من خلايا المدينة السرية بالقاء القنابل على منازل زعماء الحركة الصهيونية ومموليها في الحي اليهودي ، مما جعل السلطات البريطانية تبادر إلى اعتقال العشرات من رجال البلدة وزجتهم في المنافي والمعسكرات المعروفة (سجن المزرعة في عكا، صرفند، المالكية، وبعض معسكرات الجيش للسخرة)، كما قامت بنسف بيوت بعض الحرفيين الفنيين الذين يساعدون في صيانة أسلحة الثوار وبعض المجاهدين مثل دار (أولاد الكوري ـ دار منصور الغوراني ـ ودار المجاهد رشيد الشاعر). وكان ذلك بعد مضي أربعة أشهر على إضراب البلدة وباقي مدن فلسطين.

ولقد رد الثوار بنصب كمين على الحدود اللبنانية لسيارة يهودية وحراسها من البريطانيين، واستطاع المجاهدون الذين كمنوا على طريق النجدات إلى الموقع من الاجهاز على سيارات الحرس البريطاني وغنم أسلحتها والانسحاب بعد استشهاد أحد أبناء البلدان المجاورة.

تمرد قرية سعسع :

استمرت التعبئة في القرى التابعة لصفد في مطلع صيف ١٩٣٧، وتصدت السلطات البريطانية لمن اسمتهم (بالمخربين) الذين يقومون بأعمال ضد القوات البريطانية من اتلاف الأسلاك الشائكة وقطع وسائل مواصلاتها، وحملت جثتي شهيدين من قرية سعسع على طريق صفد ـ عكا غرباً، فكان تشييعهما في البلدة مظاهرة عارمة زاد في حماستها وصول نسوة القرية إلى المدينة، يستنجدن بسكانها لاطلاق سراح رجال القرية المعتقلين جميعاً، مما اضطر السلطة المحلية إلى إعادة فرض منع التجول في صفد.

معركة جرن الحلاوة:

إلى جانب موقع (جب يوسف) منطقة وعرة تسمى جرن حلاوة، تقطعها طريق السيارة القادمة من طبريا إلى صفد عبر (الجاعونة) فكمنت مجموعة من الثوار بقيادة (عبد الله الشاعر) ومساعدة أخيه (رشيد) لقافلة يهودية تحرسها كالعادة السيارات البريطانية. وبعد أن سدَّ المجاهدون الطريق بالحجارة وفروع الأشجار، هبط الحرس اليهودي لازالتها فانهمر الرصاص عليهم، واستمرت معركة طويلة

اضـطر الـبريطانيون فيها إلى طلب نجدة، مما دعا المجاهدين إلى ذعم موقفهم (بفـزعـة) نجـدة من البـدو القـاطنين قريباً من الموقع، كان يطلق عليها عربان[١٢] عشائر المواسي، الزنغرية، السمكية، القديرية، ومن قرية الظاهرية، مما زاد في خسائر الأعداء من اليهود والانكليز. ونقل بعض المشاركين في المعركة بأن عدد القتلى والجرحى جاوز الخمسين نفراً. وحصت البلبلة حول استشهاد شقيق قائد المجموعة المجاهد (رشيد) بين تصديق وتكذيب، حتى حملت جثته في اليوم التالي إلى جانب الشهيد (محمد ترشحاني)، وكلاهما من حارة الوطاة.

وعلى أثر ذلك شن الثوار هجمات متلاحقة وموزعة بقيادة عبد الله الشاعر في منطقة الحولة بخاصة وفي قرى شمال صفد وغربها مثل (ماروس ـ السموع ـ فرادة)[١٣] ثم (سعسع ـ النبي يوشع ـ الجاعونة ـ نجمة الصبح ـ ووادي عروس).

موقعة القديرية:

وتقع القرية في الجنوب الغربي من صفد، وكان سكانها يجمعون بين الزراعة ورعـاية المـاشية من عشيرتي المواسي والقديرية اللتين كانتا تزودان الثوار بالمؤونة والمـآوي والمقـاتلين والمعلومـات مما حدا بالسلطـات الـبر يطـانيـة إلى تطويقها واحراق بيـوتهـا وقتـل عدد من رجـالها بعد اشتداد المقاومة وإيقاع الخسائر بالمهاجمين واستشهاد عدد غير معروف من العشيرتين ومن يلوذ بهما من المجاهدين.

---

١٢ ـ كان يحيط بصفد إلى جانب القرى الكثيرة التي ذكرناها في مقدمة الكتاب، مجموعات من العربان (البدو الرحل أو البدو القاطنين) إلى جنوب البلدة وغربها. وكذلك في منطقة الحولة والمناطق المجاورة للجولان في سورية وعلى حدود لبنان أيضاً مثل عرب اللهيب وبنو حمدان، وعرب الفاعور وغيرهم..

١٣ ـ (ماروس) قرية كان يملكها ويسكنها عدد من العرب من أصول مغربية (شمال أفريقية) توطن ملاكها الريفيون في صفد والفلاحون في القرية. (والسموع) قرية تقع في احضان جبل الجـرمق على كتف (وادي الطواحين) أما فرادة فقد نزل فيها فريق من جيش الانقاذ أوحت بمجموعة قصصية للكاتب العربي السوري الشهير (عبد السلام العجيلي) اسماها (بنادق فرادة) وطبعاً قامت السلطات الصهيونية بطرد جميع سكان هذه القرى بعد الاحتلال وإزالة اكثرها أو تغيير أسمائها.

موقعة الخشن:

وهي قريبة من قرية (الجاعونة) على طريق صفد - طبريا وقرب منعرج وعر كان يسمى (الصيفية) وبدأت الموقعة بمحاولة قوة من الجيش البريطاني محاصرة كوكبة من المجاهدين، الذين تمكنوا من اعطاب سيارة مصفحة وقتل عدد من الجنود البريطانيين. واستشهد أفراد من المجاهدين عُرف منهم (طه الطيروية).

صدى معارك صفد:

لم تكن ظروف المرحلة لتسمح بالدعاية اللازمة لمثل هذه المعارك. وكانت تقتصر على الرواية ثم المراسلات غير المنتظمة إلى بلدان فلسطين الرئيسية وقادة الحركة الوطنية وإلى العواصم العربية وصحفها ولاسيما دمشق وبيروت والقاهرة وبغداد. فيما كانت الاذاعة الفلسطينية الحكومية والخاضعة لقانون الطوارىء البريطاني تصف الثوار (بالمخربين) وقطاع الطرق الأمر المألوف في حركات التحرر العالمية جميعاً ضد الاستعمار.

أما التعبئة الوطنية فكانت تجد في بطولات المجاهدين مادة حية لكسب مزيد من الثوار ورفع راية الوطن ومفاهيم الاستقلال ومُثُل الاستشهاد والتضحية. ولم تكن هناك منظمات ترقى إلى مستوى التنظيم الحزبي. وبعد اتساع الثورة واكتساب صفتها الشعبية ابرزت قيادات من الفلاحين والثائرين وأصبحت اعلاماً تتغنى بها اهازيج الشعب في أفراحه واتراحه.

وقد قيض الله لبلدة، (صفد) أحد معلميها الوطنيين الذي أخذ على عاتقه وبدافع وطني تلقائي مهمة المراسلة ونقل أخبار النضال وممارسات السلطات البريطانية والمنظمات الصهيونية إلى القيادات الفلسطينية وبعض العواصم العربية ولاسيما دمشق وهو (عيد سليمان اللّحام)[١٤].

١٤ - كان معلماً في الصفوف الابتدائية الأولى، وعرفناه بحديثه وكان كثير الشرود ولم تكن تبدو عليه مظاهر العمل العلني أو ممارساته كالتوجيه أو الخطابة الصريحة، أو قيادة المظاهرات. وبقي مناضلاً صامتاً حتى نشر الاستاذ اكرم زعيتر الوثائق الفلسطينية، وأشار إلى اسمه الصريح في المراسلات بعد أن كان يوقع باسم (علياء). ثم نزح إلى سورية بعد النكبة وكان في درعا - حوران (معلمًا ومفتشاً) وتوفي في السبعينات بدرعا (حوران - سورية).

الجمعيات والنوادي :

كان هنالك اتفاق ضمني في جميع انحاء فلسطين أن يساهم المقتدرون في تمويل الثورة وتموينها ويتصل بهؤلاء (جباة) وبأسلوب غير علني وهم رُسل الثورة والثوار في الجبال. كما كانت هنالك جماعات تتولى رعاية أسر الشهداء تحت ستار الشرعية كالزكاة أو القرابة أو الجوار.

النادي الرياضي :

كان النادي الرياضي الاسلامي الشكل الشرعي للنشاط الوطني غير المشروع والمحظور آنذاك، والذي يتظاهر بالاهتمام الرياضي والكشفي. وقد بدأ تأسيسه منذ العشرينات ومن مؤسسيه سعيد عزيز عيسى، جمال حميد، نصوح منّور (أبو غاندي)، عبد الله الاصبح، أحمد الحاج ياسين (استشهد) ثم محمود الكيلاني، صلاح العباسي، صلاح شما، شكيب الأموي، فوزي الصباغ، محمود النقيب، عبد الهادي الحاج سعيد، وعبد الرؤوف حجازي.

وكانت المسرحيات التاريخية العربية من ألوان النشاط الوطني، والتي تتعلق بالمنطقة مثل مواقف (صلاح الدين الايوبي) فاتح القلعة، وأخرى للظاهر بيبرس، ثم تعليم الأمين، وتعليم التاريخ العربي، وجغرافية الوطن العربي، التي كانت محدودة أو معدومة في المناهج الرسمية. واختيرت أسماء عربية اسلامية تاريخية لفرق الكشافة أهمها (فرقة المثنّى).

جمعية اليقظة العلمية :

كانت تدعو في أواخر العشرينات إلى التفتح الوطني الليبرالي وبث الوعي القومي ومن مؤسسيها سعيد عزيز عيسى، جمال حميد، عبد الرحمن الخضرا، فوزي الخضرا، محي الدين الحاج عيسى، مصطفى النقيب، أحمد خليفة. وعرفت هذه الجمعية بسمتها الوطنية.

الجمعيات السريّة :

كان بعض شباب البلدة قد نظموا جمعيات سرية في هذه الفترة هدفها القيام

بتصفية العملاء أو بعض عنّاصر النظام البريطاني، والمنظمات الصهيونية، اطلقت على نفسها اسم «جمعية الكف الأسود» ومن مؤسسيها: حسن عرب، سعدي القوصي، فؤاد رستم، محمد علي درويش، محمد حسن الصرصور (منصور). ولقد اسهمت هذه الجمعية بالاشراف على التهديد أو تنفيذ احكام الثورة بالاعداء. وكثيراً ما كانت تعلق رسائلها على أبواب المساجد والمدارس، ولا تخلو من التشهير بالمشبوهين والدعوة إلى مقاطعة البضائع اليهودية.

جمعية الكف الأحمر:

قام ابناء المدن كما اسلفنا، وخلال سنوات العنف الوطني وانتشار الكفاح في الريف، بتأليف خلايا سرية مهمتها القتال داخل المدن. فإلى جانب (جمعية الكف الأسود) قامت مجموعة من الشبان المتحمسين بتأليف (جمعية الكف الأحمر) وبدأت باغتيال مسؤول التنظيم الصهيوني في البلدة الطبيب (شتمر) والقائمقام المتعاون مع الانكليز آنذاك.

ومن مؤسسيها: فهد حامد، ابراهيم خليل درويش، محي الدين درويش، رمزي غنيم، فؤاد حمادة، فؤاد رستم، ناصر علي اسماعيل، أحمد السيد (الذي نزح إلى عمان واستشهد إثر جراحه في معارك القدس عام ١٩٤٨) وحميد الآغا. وكانوا يعملون بسرية كبيرة.

كانت هذه المنظمات سواء العلنية أم السرية، وراء تنظيم الاضرابات وحركات العصيان والمظاهرات، مثل تلك التظاهرات الطلابية والجماهيرية التي كانت تجوب الشوارع وتتمركز أمام مراكز الامن للاحتجاج على تعذيب الموقوفين أو نفيهم أو قتل الشهداء، أو عمليات التخريب التي كان يطلق عليها اسم (الكبسة)، فكان على أثر كل معركة أو أية ممارسة وطنية، أو وشاية حول وجود قطعة سلاح في حي، تداهمه قوات الجيش البريطانية فجراً لتقوم بعدها بخلط كل المواد التموينية لكل بيت بعضها فوق البعض الآخر، وتحطم النوافذ والابواب

ويتم فيها سرقة الحلي والمجوهرات والادوات الثمينة، ويبعثرة ما يحتويه البيت من غذاء وأثاث[١٥].

وكانت أكثر المظاهرات تنطلق من المساجد بعد التهليل والتكبير وذكر فظائع الحكم البريطاني واطماع الحركة الصهيونية على لسان الخطباء. وعلى إثر نداء من القائد الفلسطيني (أبو درة) في منطقة (يافا) تم دعوة جميع سكان فلسطين ان يعتمروا اللباس التقليدي وهو (الحطة والعقّال). وطالب النداء بالتخلي عن لبس (الطربوش) الذي كان يُلبس في المدينة غالباً لأن من عادة قوات الأمن البريطانية أن تعتقل من يعتمر (الحطة والعقال) في المدينة فقد كان لباس الثوار الذي يقيهم الحر والبرد في الجبال. ولما كان بعض لابسي الطربوش يرفضون التخلي عنه كان الوطنيون يوعزون للغلمان بمتابعة هؤلاء والهتاف خلفهم:

اشلح اشلح هالطربوش
والبس البس الحطة
هيك (هكذا) علمتنا الثورة.

وهكذا زال أثره منذ عام ١٩٣٨ حتى ابتداء الحرب العالمية الثانية. ولا تخلو ظاهرة مهاجمة الطربوش من إشارة طبقية كرغبة الثوار بالزام الوجهاء والطبقة الوسطى بالمشاركة ضمن القوات الشعبية.

ثم اتبَّع النظام البريطاني هجوماته البربرية بالتضييق على أخبار القتال

---

١٥ ـ بسبب برودة الطقس شتاء وانقطاع المواصلات احياناً، فقد كان التقليد أن تلجأ الأسرة إلى خزّن كل حاجاتها الاساسية في أقبية البيوت أو مطابخها فكان لا بد من المؤونة السنوية للزيت (في التنك أو في وعاء من الفخار الكبير يطلق عليه اسم خابية) والسمن العربي والبرغل الذي كان يوضع في حافظة مبنية من الطين ومطلية بالكلس الأبيض من الداخل والخارج ولها فتحة سفلى تُسد بكرة من القماش يطلق عليها اسم (الكوارة) ثم يأتي الكاز والسكر والقمح والجبنة واللبنة وأنواع المربيات والفرش استعداداً للضيوف. وكانت العادة أن توضع في صدر البيت بشكل مرصوف فوق بعضها في فتحة حائط يطلق عليه اسم «اليوك» وتتدلى فوقه ستارة من القماش المطرز للزينة.

والاعتقال، فقد صدر قرار من مدير المطبوعات بصفته مراقباً على الصحف في آب ١٩٣٨[١٦]، جاء فيه:

«. . . استناداً إلى الصلاحية المخولة إليّ كمراقب في المادة الحادية عشر من نظام الطوارىء، أنا أوين مرديت كويدي، آمر بمنع طبع أو نشر أي خبر يتعلق بأية حركة من الحركات العسكرية، أو حركات البوليس التي تجري ضمن قضاءي عكا وصفد في فلسطين، في أي جريدة أو نشرة دورية، سواء بصورة خاصة أم عامة تلميحاً أو ضمناً، أو إشارة إلى الحوادث التي قام بها الجيش أو البوليس أو يقوم بها ضمن القضاءين المذكورين، أو أي إشارة إلى محاولات اتلاف الاسلاك الشائكة المنشأة على الحدود بين قرية البصة وبحيرة الحولة وروش بينا (الجاعونة)[١٧]، والطابغة (جنوب صفد على بحيرة طبرية) ونهر اليرموك (على الحدود مع سورية) أو أي إشارة إلى صيانة الاسلاك الشائكة أو تقدم العمل في انشائها. . .»:

فما كان من المجاهدين إلا أن قاوموا هذا الإجراء بإصدار «بلاغ من قيادة الثورة بشأن قرار مدير المطبوعات بمنع نشر أخبار الحركات السياسية والعسكرية في قضاءي عكا وصفد».

جاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم.

إلى فصائل المجاهدين في اللواءين الشمالي والجنوبي.

صورة عن التحارير والأوامر التي تبعث بها السلطة الانجليزية في فلسطين إلى أصحاب الجرائد والمراسلين ليمتنعوا عن نشر أنباء المنطقة الشمالية وذلك ليستروا فضائحهم وانخذالهم. . فالرجاء من عموم أخواني الأبطال المجاهدين أن

---

١٦ - وثائق فلسطينية - اكرم زعيتر ص ٤٨٧.

١٧ - مر ذكر هذه القرية في مناسبات مختلفة، وكان يسكنها بعض اليهود، وما زالت تضم مطاراً عسكرياً موروثاً من أيام البريطانيين. . وكانت قاعدة عسكرية أيام الانتداب البريطاني ومركزاً لأبحاث الطب ولا سيما على مرض الملاريا. ولم يبقَ فيها أي عربي. وهي مفصل يؤدي إلى الحولة على طريق طبريا - صفد في سفح جبل أبو ربيعة.

يضاعفوا هممهم ويفهموا الاعداء الخاسرين أن اللواء الشمالي هو جزء لا يتجزأ من فلسطين العربية. . هذا قول باطل مردود تكذّبه المعارك والشجاعة النادرة وخسارات الانكليز واليهود التي دوى صداها في انحاء العالم».

«إخواني المجاهدين احذروا من الدساسين والمنافقين من الانكليز واليهود ودعاياتهم الفاشلة».

المتوكل على الله[18]

وقد اضطر المجاهدون إلى إصدار جريدة (الجهاد) تجنباً للرقابة وقد ورد في العدد الأول:

«. . . وإظهاراً للحقيقة ولنشر حقيقة ما يقع من مصادمات في اللواء الشمالي فبعد الاتكال على الله تعالى، عزمنا على إصدار جريدتنا هذه لتنطق بلسان المجاهدين الابطال. . . كما أن الجريدة مستعدة لقبول أي مقالة لنشرها شريطة أن تكون نارية وثورية. . . ».

أما ألوان التعذيب الذي يلقاه المعتقلون العرب في السجون فقد وردت على لسان المجاهد (صبحي الخضرا) من سجن عكا بتاريخ ١٩٣٨/٨/١٧ إلى الاستاذ اكرم زعيتر: «. . . إنه ليس تحقيقاً تُستعمل فيه وسائل الشدة، لا! وإنما هو انتقام وتسليط لأفظع الغرائز الوحشية الهمجية ولروح الكراهية المركّزة في هؤلاء. . إنهم يقصدون التعذيب للتعذيب ولاشباع نهمتهم للانتقام لا للتحقيق أو لاظهار الجرائم. . . .

أما الزبانية المعذبون فقد كانوا ملثمين وقد اشتهر منهم أفراد من الانكليز واليهود، عرفوا في أقبية التحقيق فكان (ريكز) يخاطب المعتقلين بأنه قادر على جلبهم واعدامهم إذا هم نبسوا ببنت شفة عما جرى لهم. ولذلك وجدنا مصاعب جّمة في حمل بعضهم على الاقرار (بعد احالتهم إلى سجن عكا المركزي) بعد دورة التعذيب. . . ».

ومن رواية (عبد الرحمن النحوي)، وكان نائباً لصفد في البرلمان العربي

---

١٨ ـ وثائق فلسطينية ـ أكرم زعيتر، ص ٤٩٣.

وفي العام نفسه (١٩٣٨) وبعد استمرار الممارسات القمعية ضد اهالي القرية، رفع الأهالي في صفد احتجاجاً إلى المندوب السامي يعكس الجو العام الذي كانت تعيشه البلدة، وفلسطين عامة، هذا نصه:

«صفد في ١٦/٧/

صاحب الفخامة المندوب السامي لفلسطين

بواسطة سعادة قائمقام صفد

نحن علماء صفد واعضاء المجلس البلدي والهيئات الوطنية وممثلي الحرف الموقعين أدناه نحتج على المظالم التي تنزل بنا ونلفت نظر فخامته إلى ما يلي، راجين وضع حد لها:

أولاً: فرضت المدينة منع التجول على الاحياء الغربية فقط، وباستثناء الاحياء اليهودية، وبينما كانت المدينة كلها مسجونة، اطلقت النار على أحد الأحياء اليهودية فسارعت السلطة إلى فرض غرامة باهظة على المدينة. .

ثانياً: فتشت قوى الجيش محلتي الاكراد والصواوين فاتلفوا جميع الادوات المنزلية وبات السكان المحليين يتضورون جوعاً.

ثالثاً: اعتقلت السلطة من الشارع بعض وجهاء صفد المعروفين، وساقتهم إلى كامب (معسكر) الجيش على الحدود وبدأت تشغيلهم بالاسلاك وبالكنس ولم تقدم لهم طعاماً وباتوا ليلتين بدون فراش.

رابعاً: القى يهودي قنبلة على حي عربي وفي اثناء ذلك، كان الاستاذ أحمد عبده، المعلم في إحدى المدارس الأميرية يدخل بيته، فأطلق الجند النار عليه من مخيمهم فقتلوه فوراً، وخرج أبوه الشيخ الجليل من البيت لاسعاف ابنه فعاجله الجند بالرصاص على رجليه، وهرع بوليس عربي اسمه (عزة الدبور) وكان بالبسته العادية إلى مكان الحادث فقتله الجند بالرصاص.

خامساً: وبينما كان المرحوم الشاب (ناظم سعيد الشعار)[19] أمام بيته أطلق عليه

١٩ ـ كان من ابناء قرية (شحيم) في لبنان ويعمل بعض ابنائها في صفد، في غزل الشعر وصنع قماش الخيمة البدوية لبيعها إلى العربان في ضواحي البلدة.

الجند الرصاص فقتلوه حالاً، ودفنوه بدون إجراء المراسم الدينية.

سادساً: مُنع الأهلون من الصلاة وصلاة الجمعة. وأراد أحد المؤذنين أن يؤذن لصلاة الجمعة فأطلق الجند الرصاص عليه.

سابعاً: اقتحم الجند بعض البيوت واعتدوا على من خرج منها بجروح خطيرة.

ثامناً: منع التجول في صفد وما زال منذ خمسة أيام فاستولى العطش على أهالي البيوت لقلة الماء ومات بعض الأطفال لفقدان الحليب».

التواقيع...

وتعكس رسائل المعلم الوطني (عيد سليمان اللحام) إلى الاستاذ اكرم زعيتر صورة عن الوقائع التي جرت اثناء هذه الفترة واستمرار الثورة ما بين ١٩٣٨/١٩٣٩. فكانت رسائله تأريخاً نادراً للأحداث يوقعها تخفياً باسم (علياء) في أغلب الاحيان. وكان يرسلها إلى اكرم زعيتر تحت اسم (انطوان). كما كانت رسائله لا تقتصر على أحداث بلدة (صفد) بل وتتناول منطقة الجليل ولاسيما طبريا وعكا وحيفا ايضاً. ومن نماذج تلك الرسائل في تاريخ ١٩٣٨/١٠/٦[٢٠]:

أخي انطوان:

وقعت البارحة (الأربعاء) معارك هائلة بين قوات الحكومة الانكليزية وقوات المجاهدين ولقد كان خط القتال طويلاً جداً، ابتدأ اعتباراً من قرب طبرية عند مكان يدعى (جرنّ حلاوة)، فشمل جميع الجبال الواصلة بين طبريا وصفد! ومن جبال صفد إلى جبال قرية (ترشيحا) من أعمال عكا، وكان الخط يزيد على الثمانين كلم.

واشترك في القتال من قوات الحكومة ما يزيد على خمسة آلاف جندي، وثمانية طائرات، أما عدد المجاهدين (والفازعين)[٢١] فكان قرابة ألفي مجاهد. ولقد خسرت قوات الحكومة في هذا الاشتباك الخطير ما لا يقل عن أربعين قتيلاً واضعاف هذا الرقم من الجرحى. ولقد أتلف المجاهدون عدداً وفيراً من عدة القتال الانكليزية.

---

٢٠ - وثائق فلسطينية، ص ٥٠.

٢١ - اصطلاح ريفي بمعنى النجدة والمساعدة.

وخسرت الثورة العربية المجيدة في هذا الاشتباك، البطل (أبا خضر) فقد استشهد رحمه الله بالقرب من قرية (فرادية)[٢٢] بين عكا وصفد بينما كان يورد خيله نبع القرية المذكور، وذلك عندما فاجأتهم قوة من الجيش كانت تجتاز الطريق. كما أن ثلاثة شهداء آخرين استشهدوا قرب (جرن حلاوة) وجرح أربعة آخرون. وكل ما ستذيعه محطات الاذاعة بهذا الصدد تجنٍّ على الحقيقة الراهنة.

ويتابع رسالته ليتحدث عن انتقام الانكليز بقصف طائراتهم لقرى (أديتا) و(الزنفرية)، واستشهاد عدد من النساء والاطفال، كما يتحدث عن الانتقام باحراق البيوت التابعة للبدو حول طبريا ثم الصدام العنيف مع عرب (السيبانة) بين صفد وطبريا، واستبسال هؤلاء، بالاضافة إلى سوق الجيش البريطاني للمعتقلين إلى جبل كنعان وعرضهم أمام صاحبة فندق (سارة)[٢٣]

أما الانتقام من مدينة صفد نفسها، فقد قامت إحدى خلايا المجاهدين بالهجوم على دائرة الاشغال العامة وحصلت على بعض وسائل الاتصال وآلة كاتبة فنزلت قوة الجيش البريطاني وداهمت البلدة واحتلت الاسطحة لتطلق الرصاص عشوائياً مما أدى إلى مقتل رجلين وسبعة نساء وفرض غرامة مقدارها مئة جنيه تدفع خلال اثنتي عشرة ساعة».

التوقيع شقيقتكم
علياء

وهذه رسالة أخرى:
صفد ١٩٣٨/٧/١٩[٢٤]

كمين الثوار بالقرب من قرية (المنطار) عند مفترق الطرق بين جسر بنات يعقوب والطريق المؤدية إلى الحولة عند الكيلو ٢، وبوصول دورية البوليس والجند

---

٢٢ ـ تلفظ أحياناً (فراضة) وأحياناً (فرادة).
٢٣ ـ فندق (سارة) ينسب إلى (آدونة) صهيونية ثرية صاحبة بناء فخم في قمة جبل كنعان قرب معسكرات الجيش البريطاني. وفيه كانت تتم عملية التنسيق مع الضباط البريطانيين وتقدم لهم الرشاوي بالطرق العديدة. وما زال قائماً حتى الآن.
٢٤ ـ وثائق فلسطينية، اكرم زعيتر ص ٤٨٤.

بسيارة مصفحة بكامل المعدات الحربية، اطلقوا عليها النار بشدة فأجاب البوليس والجند بالمدافع الرشاشة ودام اطلاق النار مدة ساعتين، وقد اعتقل البوليس اثنين من العرب بتهمة العلاقة بالثوار. وقد اتلف الثوار ماكينة حصاد تخص اليهود في روشبينا . .

. . . وعصر اليوم نفسه، كمن المجاهدون بسفوح الجبال التي لا تبعد عن الطريق العام . . واشتبكوا مع سيارات البوليس والجند. وقد اتلف الثوار اسلاك التلفون بين صفد وعكا على طول ١٥ كم . . . فخرجت قوة لتعقب الثوار بجبال (مير ون) (سعسع)و(فرادية) ولم يعثروا على أحد.

وعند الساعة التاسعة من ليلة الأمس، وضع المجاهدون لغمًا بالطريق العام من قرية (سحماتا) ولما وصلت سيارة ملأى بالجنود، انفجر اللغم وتحطمت السيارة وعلى القاعدة، حسب البلاغ، لم تقع إصابات.

وعلى إثر انفجار قنبلة بسيارة محمود المرعي من قرية (فرعم) بشارع الملك فيصل بجانب الكراَجات، اعتقل البوليس صاحب السيارة وحكم عليه ستة أشهر!!

واثناء انفجارها، وتجمهر أهالي المدينة شوهد اثنان من اليهود يسرعان من الشارع المؤدي إلى السراي القديم فأسرع الناس وراءهما وامسكوهما ويدعيان (مزراحي خانوف) رقم ١٧٤٩٨٨، و (ابراهام يوسف ازاييم) رقم ٨٨١٧٥٠، وهما خفيران[٢٥]، فاعتقلهما البوليس ثم لم يلبثا أن خرجا بكفالة . . وفرض مساعد حاكم اللواء قانون منع التجول على الأحياء العربية باستثناء اليهودية لمدة ٢٤ ساعة ليلاً نهاراً. وانتشرت دورية الجند بالشوارع. وعند مرور خمسة أيام على

٢٥ ـنمت ظاهرة الخفر اليهودي مع نمو المستعمرات وقد تم ذلك باشراف القوات البريطانية وتدريبها. وكانت لبعضهم مهمات خاصة إلى جانب الحراسة وهي التنسيق مع ضباط التحقيق والتعذيب وكذلك صنع القنابل (وزاد عدد هؤلاء الخفراء وأصبحوا المادة الدسمة للمنظمات اليهودية الارهابية) الموقوتة التي وضعت في السوق الرئيسية في حيفا ضمن صناديق الخضار بعد اعتقال أصحابها بحجة التحقيق عام ١٩٣٨.

الاضراب الشامل، وإصرار الأهالي عليه حتى بالوقت المسموح لهم (ساعتين) من أصل ٢٤ ساعة انزل قائمقام المدينة ومساعد مدير البوليس، وأخذا يقنعان السكان لفك الاضراب على اساس عودة الأهالي لمزاولة اعمالهم كالمعتاد، والغاء قانون منع التجول. وقد الغي منع التجول نهاراً وبقي ساري المفعول من غروب الشمس حتى شروقها وقد مضى على هذا المنع ثلاثة أشهر».

توقيع سعاد الدين[٢٦]

ولم تسلم القرى من أعمال النسف والاعتقال، فقد دمرت القوات البريطانية ثمانين بيتاً في ١٩٣٨/١١/١٨، من بيوت قرية (الرأس الأحمر) من قضاء صفد. تبعها اطلاق الرصاص على الأهالي في حقولهم ومراعيهم وقتلت بعضهم كما ورد في بيان (آل الخطيب) من وجهاء القرية نفسها في ١٩٣٨/١١/٢٠. ومثال آخر على ما ورد في إحدى رسائل المعلم (عيد سليمان اللحام) عما جرى في قرية (عين الزيتون) من اطلاق الرصاص على المتحطبين وقتل بعضهم وكذلك نسف عشرات البيوت في قرى (الصالحة، عكبا، العموقة).

وتركزت الهجمات بتاريخ ١٩٣٩/١/٢٩، مع تصاعد أعمال الثورة على أكثر قرى صفد، وعاث الجند فيها.

«. . . استيقظ أهالي القرية على صوت ازيز الطائرات وهي تحوم فوق قريتهم ثم القت بياناً تحذر الأهالي من الخروج منها، كما القت القذائف على مداخلها فقتلت الحيوانات والمواشي. . ثم هدم الجنود بيوت هذه القرية وحرقوا مفروشاتها وكسروا أثاثها وخلطوا الزيت بالطحين والسكر مع الملح، وكسروا الأواني ونهبوا جميع ما استحصلوا عليه من نقود. . وكان أهالي القرية تحت حراسة فرقة ثابتة ثم طلب القائد إطعام الجنود فأجاب الأهالي (ما تركتوه في البيوت خذوه)

---

٢٦ ـ اعتقد أن صاحب الرسالة هو الوطني المعروف بالبلدة (كمال سعد الدين) الذي قضى فترة طويلة في معتقل سجن عكا المركزي، مما سبب له مرض السل الذي اضطره فيما بعد للاعتكاف والاكتفاء بمراسلة صحيفتي (فلسطين) و(الدفاع) المشهورتين في فلسطين، ولم يلبث أن قضى نحبه إثر المرض العضال.

فزادت نقمة هذا القائد وأمر الجنود بضرب الأهالي من جديد، دون تفريق بين امرأة أو طفل، وبعد أن اعتقلوا عدة أشخاص غادروا القرية بعد أن تركوها خراباً. . .».

اللجنة الاصلاحية لقرية العمّوقة

عنهم سليم صالح

وفي رسالة موجهة إلى قيادة الثورة العربية عن عمليات المجاهدين في منطقة صفد، في ١٩٣٩/١/١ جاء فيها: «. . . وفي ١٣ ذي الحجة /١٣٥٧ هـ هاجم فصيل أول المستعمرة اليهودية نجمة الصبح (على طريق الحولة بعد الجاعونة وقد تعرضت لهجمات عديدة) وفصيل ثاني هاجم معسكر الجاعونة وفصيل ثالث اشتبك مع الجنود على طريق الحدود، وفصيل رابع معسكر ميرون صفد، وفصيل خامس كمن في جبل كنعان. . وإنني أحلف بالله لولا مدافعهم وطائراتهم لم (يستقيموا) الجند أمام المجاهدين يوماً واحداً. . وبعد ثلاث ساعات متوالية انسحب المجاهدون بدون ما يحصل معهم أي ضرر. ملاحظة: نقدم لكم القرى التي قامت في الواجب: فاره، الجش، صفصاف، أدّيتا بيرية، فرعم، مغار الخيط، القباعة. ومن خصوص الغام باقي عندنا اثنين لا نريد أن يروحوا بلا منفعة».

المتوكل على الله[٢٧]

أبو سلطان

لم تزدْ هذه الأعمال رجال الثورة سوى مزيد من الحماسة والمجابهة والصمود. وزاد انتشار العمليات العسكرية على مفترق الطرق ومراكز الأمن البريطانية. وبعد أن اتسعت عمليات تجنيد الخفراء اليهود وزاد تعسفهم في

٢٧ ـ وثائق فلسطينية، اكرمَ زعيتر، ص ٥٥٧. أبو سلطان كما يعرف في صفد، هو محمود عثمان وكان من أبناء صفد ومعروف أنه من القادة. وقد اسهم في تعبئة القرى وتوزيع الاعمال لخبرته في حياة الريف. وهو مقيم الآن في دمشق.

ملاحظة: حافظنا على لغة النص الأصلية كما وردت. . .

التنسيق مع القوات البريطانية، أصبحوا هدفاً للثوار ففي رسالتين من صفد عن عمليات المجاهدين ومداهمة القوات البريطانية للقرى في منطقتي عكا وصفد[٢٨] :

«حوالي الساعة الخامسة من مساء الجمعة، وبينما كان أفراد البوليس الاضافي اليهودي في صفد يتمرنون على الحركات العسكرية في مكان يشرف على (وادي الطواحين) شاهدهم فصيل من المجاهدين كان يجتاز الوادي المذكور مصادفة، فباغتوا أفراد البوليس اليهودي باطلاق النار، فسقط أربعة قتلى وثلاثة جرحى، لم يلبث أن توفي أحدهم في مستشفى الحكومة بصفد. . وفي هذا الوقت، حاول المجاهدون مداهمة الحي اليهودي، إلا أنهم اصطدموا بمفارز الجيش البريطاني التي جاءت لنجدة أفراد البوليس اليهودي، ولما حاولت القوة العسكرية الانكليزية تطويق الوادي المذكور، دارت رحى معركة هائلة حتى حلول الظلام، وقد اسفرت المعركة عن مقتل جندي بريطاني وبوليس بريطاني أيضاً، وعدد الجرحى لم نتمكن من التثبت من صحته. ولم يُصب أحد من المجاهدين بأذى والحمد لله. . إن كل هذا الذي أرويه حقائق عارية مشهودة، ولكن محطة إذاعة فلسطين ذكرت مقتل بوليس واحد. . هذا كذب محض». . .

ذيول الحادث: « . . . وفي صباح يوم السبت، طوقت قوات الجيش قرية (عين الزيتون) القرية القريبة والوحيدة، عند مكان الموقعة، ولا استطيع أن أصوّر لك، ولا بشكل من الأشكال، الفظائع والتخريب والنهب والخشونة والفظاظة التي يستعملها الجند مع سكان القرية المذكورة. لقد أحرقت في القرية أربعة بيوت بما فيها من الأثاث والمؤونة، كما انهم كانوا يجمعون الثياب والفُرش والحصر من البيوت الأخرى ويقذفون بها في النار!! . . وقد عُذب رجال القرية طيلة نهار

٢٨ ـ الأولى موقعة باسم علياء (عيد سليمان اللحام) والثانية باسم (الحاج حامد كنعان) وهي للكاتب نفسه وكلاهما موجهتان للاستاذ اكرم زعيتر في دمشق.

الأمس وتحت الامطار المتعبة، وكانوا يجعلون سكان القرية عراة ويأمرونهم بالجري والويل الويل، للذي يتأخر أو يلتفت خلفه. . . ».

التوقيع شقيقتكم علياء

ويعـود في الـرسـالة الثانية ليطالب بالبضاعة والقماش والمقصود الـذخيرة والالغام التي تأخر وصولها. .

الفصل السابع

مظاهر من الحياة الاجتماعية

الولادة:

في المجتمعات الزراعية نجد التفاخر بعدد الأولاد الذكور، وهذا أمر موروث وملموس في البلدة. وكانت الأساليب التقليدية هي الشائعة (فالولاّدة)[1] كانت من النساء المسنّات التي حصلت على حرفتها من خلال التجربة. وهي من الشخصيات الاجتماعية في حيِّها. وكانت صعوبة الولادة حين تتم في الشتاء، لأن من يأتي (بالداية) عليه أن يحمل الفانوس اليدوي لانعدام كهربة الشوارع.

وكانت الفرحة تكبر وتنطلق الزغاريد حين يكون المولود ذكراً، وعلى العكس كان يصيب الجميع وجومٌ حين يكون المولود انثى على رغم عبارات التخفيف والتعزية! . وتبدأ زيارة المولود الجديد من الاهل فالأقارب فالجيران فالأصدقاء. ويكون اليوم الثالث على الأغلب، موعداً (للنقوط) والهدايا. ويقدم أهل الوليد الحلاوة (حلاوة الطحينة الشامية) وكذلك القرفة المغلية المتوجة بالمكسرات (جوز/ لوز/ صنوبر).

وكان يفضل أن يكنى الولد الأكبر باسم جده حفاظاً على استمرار سلالة الأسرة، بل كان يُدعى وهو طفل (بأبي فلان) أي باسم أبيه. كما كانت تجري تقاليد احتفالية في الأسبوع الأول بما يُسمى (يوم الكحل) وكذلك احتفال اكبر

---

١ ـ كان يطلق عليها اسم (الدّاية)..

(بالطهور) إذا تم في الأيام الأولى، وبعض الأسر تضطر للتأجيل حتى يكون الحفل مهيباً، أو للجمع بين أخوين أو ابناء عم، أو جيران أو أقارب. وكان يلبس الطفل رداءاً أبيض، وتجري قراءة (المولد) أي بعض الآيات القرآنية، والاشعار في مدح الرسول ويتم توزيع صرر الملبس (اللوز بالسكر).

الزّواج:

بسبب انفصال الجنسين في المجتمع المحافظ، كان يتم ترشيح الفتاة عن طريق الأهل، وغالباً ما يكون للأم الرأي الأول حين تقوم بزيارة بيت العروس ويسمى ذلك (نقد العروس) أي التحقق من صلاحية العروس شكلاً ومضموناً.

وحين تحصل الموافقة الضمنية، يقوم أهل الفتى بإرسال وفد يُفضل أن يكون من (وجهاء) البلدة واعيانها وفي يوم متفق عليه، ليبدأ أحد كبار السن في مدح الاسرتين وإسباغ الصفات الايجابية على الفتى لينال الموافقة العلنية من الأب أو العم أو الجد أو الأخ الأكبر.

وفي يوم متفق عليه يذهب الفتى إلى دار العروس مع ذويه لرؤيتها ويفضل أن يصطحب معه هدية من الذهب تُسمى (المَسكةِ) أو (الشبْكة) كدليل على الاتفاق وعدم التراجع، بالاضافة إلى بعض أنواع الفواكه والحلوى. وقل أن يُتاح قبل إجراء العقد الرسمي (الكتاب الشرعي) أن ينفرد العروسان بل لابد من حضور بعض اعضاء الاسرة. وكان الاسلوب أن تدخل الفتاة تحمل القهوة لتقديمها وكثيراً ما يصاحب حركاتها ارتباك ملحوظ بسبب الخجل وأهمية المناسبة.

ثم يأتي دور العقد، ونعني بذاك الكتاب الشرعي الذي تنص اللوائح المدنية على ضرورة تسجيله لدى الدوائر المختصة، ويقوم به رجل دين كالمفتي أو الامام أو شيخ الجامع ويجوز أن يجريه في بعض الحالات أو في القرى، رجل معروف بتقواه وتدينه أيضاً.

نقل (الجهاز): ويتم هذا الاجراء إما قبل حفل الزواج، أو في اليوم نفسه، وتقوم به مجموعة من النسوة يتقدمهن طبّال معروف في البلدة. أما النسوة فكن

يحملن على رؤوسهن الصواني النحاسية أو المصنوعة من الحصير وعليها هدايا العريس من ألبسة وحلويات وسكاكر. وتختلف باختلاف الحالة المادية للعريس. ولا تخلو مسيرتهن إلى دار العروس من ترداد الأغاني والزغاريد.

وكنّ على الغالب يلبسْن الملاءات الخاصة بنساء صفد[٢]، وقلة منهن يلبسْن اللباس النسائي العادي الذي يميل إلى السواد مع حجاب شفاف للوجه والرأس أسود اللون أيضاً. وتبقى النسوة في البيت (العروس) حتى حفل النيل إذا كان العرس في اليوم نفسه أو يعدْن عصراً.

حفل الزواج: في المجتمع المحافظ كان من الطبيعي أن يجري حفل الرجال بمعزل عن حفل النساء، فالرجال يلتقون بُعيد العصر في أحد البيوت الواسعة، وغالباً ما كان موسم الزواج صيفاً. ولباس الفتى يكون أسود، أو أزرق داكناً، ويشترط أن يجلس في صدر الباحة أو القاعة وأن يحافظ على الوقار والاتزان (كقاضي البصرة) الذي لا يهش حتى ذبابة على انفه. وحتى أواخر الثلاثينات كان يُفضل أن يعتمر الطربوش. وفي المقاعد الأولى حوله، يكون الأصدقاء والأقارب من الشباب حول المغني الذي يستعمل العود في الغالب، ويردد بعض المديح للعريس والأغاني المشهورة، أما الوجهاء وكبار السن فكانوا يحتلون المقاعد البعيدة وقاراً وبُعداً عن حلقة الشباب.

أما الزغاريد فتدور حول مفاهيم الحسب والنسب لدى اسرتي العريس والعروس والدعوة إلى الصلاة على النبي ودرء الحسد. وعلى باب بيت العريس واثناء دخول العروس مع النسوة كان يُطلب إليها أن تلصق قطعة من العجين، ربما لاستمرار الزواج والخير في ديمومة الخبز والملح للتفاؤل.

ومن المعتقدات الشعبية التي يختلط فيها الجد بالدعابة، أن يتظاهر الفتى اثناء اعتلائه الكرسي إلى جانب العروس، بخطأ موقع قدمه فيدوس على قدمها

---

٢ ـ الملاءة الصفدية عباءة خاصة معروفة في صفد فقط. وكانت تميل إلى اللون الذهبي الأصفر ومخططة بخطوط سوداء. وفي الاحياء الفقيرة وبعض القرى كان لونها يميل إلى الزرقة النيلية. وكانت تستورد من مصنع خاص بها في مدينة حمص السورية الذي توقف بعد النكبة بسنوات قليلة.

علامة كون الكلمة الأولى في البيت له وحتى الأربعينات كان على العروس أن تحمل شمعتين كبيرتين مزخرفتين وملونتين خاصتين بالأعراس تحملهما العروس بكلتا يديها لتتمايل أمام العريس يمنة ويساراً في عملية تُسمى (تتجلى) والحركة هادئة بطيئة فيها خفرٌ ووقار.

الهدايا: كانت تتم باسلوب المساعدة المادية، أو تقديم بعض قطع الحلي من الذهب والفضة والنقود للعروس والعريس في ليلة الزفاف بطقوس تُسمى (النقوط) فكانت تقف إحدى الشهيرات بالزغاريد لتبدأ بذكر صاحب الهدية والمبلغ المدفوع الذي يصب في صينية أمام العروسين أو قطعة قماش جميلة.

الأتراح: مظاهر الحزن في مناسباته الرئيسية كمظاهر الفرح تتبلور عبر التاريخ لتصبح تقاليد متبعة دون معرفة أصولها ودوافعها. وفي البلدان الصغيرة تكون هذه التقاليد اكثر سيطرة واحتراماً نظراً للترابط الاجتماعي، وحجم المجتمع. فالوفاة أمر إنساني له تقاليده في كل المجتمعات قديمها وحديثها، وقد يكون للمعتقد أثر في صياغة هذه القيم ومظاهر التعامل معها.

كان يُسجى الميت في إحدى الغرف، أو القاعات الكبيرة في اليوم الأول، وكان واجب المشاركة يشمل الأقارب مهما بلغت درجة القرابة والجيران ومعظم أهالي البلدة، ولو كان هنالك خلافات وأحقاد فهذه مناسبة لازالتها، وتتم الصلاة على الميت في الجامع القريب أو في الطريق إلى المقبرة. وبعد الوصول إلى المقبرة (هنالك مقبرة رئيسية للمسلمين كانت تُسمى مقبرة (عين العافية) نسبة إلى نبع ماء قريب منها في شرق البلدة على طريق قريتي (بيريا) و (عين الزيتون)، يقوم المشاركون بتعزية أهل الميت وانسبائه الذين يصطفون قرب القبر بعد الدفن وفق تقليد يعتمد على مفهوم السن ودرجة القرابة من الميت. كذلك يتقدم المعزون وفق مفهوم السن وغالباً في مجموعات عائلية.

كان يتبارى الأهل والأقرباء بدعوة أسرة الفقيد وبعض الأقرباء والوجهاء والاصدقاء إلى تناول الطعام في بيت أحد الجيران، أو الأصدقاء المقربين أو الوجهاء لمدة ثلاثة أيام. أما النسوة فكان يُحمل اليهن الطعام إلى بيت الفقيد حيث يبقى عدد منهن لمدة تتراوح بين أيام وأسابيع مشاركة وتخفيفاً وإظهاراً للوفاء.

وفي يوم الاربعين، يستعد أهل الفقيد لاجراء تقليد يقتصر على تقديم بعض الحلويات قائلين «عن روح الفقيد» ويقوم الحاضرون بقراءة بعض أجزاء القرآن الكريم. أما الأيام الأولى، فكان المعزون يحضرون إلى دار الفقيد مساءاً حيث يمكثون فترة محدودة يتناولون فيها القهوة (المرّة) ويقوم الشيخ بقراءة بعض سور وآيات القرآن الكريم.

- ولليهود طقوسهم الخاصة التي لا يشترك بها العرب وحي النصاري كانت تسوده التقاليد وفق الشعائر الدينية المعروفة أيضاً.

العادات العشائرية:

كما قدمنا، فقد كانت مظاهر الحياة الاجتماعية تتراوح بين البداوة والقرية والمدينة، وكان التعامل الاقتصادي مع هؤلاء في دورة الحياة تجارةً ورعياً وزيارات وغيرها.

وكانت تجري أحياناً بعض التجمعات لفض النزاعات على الطريقة البدوية، حيث يدخل أهل الجاني خلف وجهاء قريتهم وشيوخ البدو وتتم جلسة بين الجهتين وبشكل متقابل يجري فيها الاعتذار والتسامح والحديث عن القضاء والقدر، والصفح عند المقدرة ويأتي بالجاني من بيت مجاور، ويصافح أهل المجنى عليه ثم يؤتى بقطعة قماش بيضاء وتربط على عصا ويردد الوجيه الذي يقوم بالعملية (ربطنا الراية... وفككنا السابة) - (إما السوء أو محرفة عن الثأر) كما أظن....

الأعياد والمواسم:

المناسبات الرئيسية التي كانت تأخذ معنى العيد هي المناسبات الدينية، ولم تقتصر على الاعياد الاسلامية فحسب بل كان السكان جميعاً يحتفلون بمختلف مناسبات الاعياد للديانات الثلاث. فقد ذكرنا أن العرب كانوا يبعثون بالموائد لجيرانهم اليهود بمناسبة العيد الكبير الذي لا يعملون فيه. وتكاد تكون هذه المناسبة الوحيدة لمشاركة الطائفة اليهودية.

أما المناسبات الأخرى فأهمها:

- ذكرى المولدالنبوي الشريف: كان حتى الاربعينات مناسبة عامة يؤم

البلدة فيها وفود من الفرسان من القرى والقبائل المجاورة، ويدورون في البلدة حاملين رايات مختلفة يرددون الاهازيج التي لم تكن ذات طابع ديني، فقد اصبحت المناسبة تقليداً اجتماعياً.

وفي البلدة نفسها كان يُخلط التراب بالكاز ويجمع في كتل متفرقة على اسطحة المنازل وتُشعل فيها النيران ابتهاجاً. كما كانت تُصنع الحلويات وتعتبر المناسبة عيداً رسمياً تقفل فيه المدارس والدوائر.

ـ عيد الفطر: كان مناسبة عامة من أهم مظاهره الألبسة الجديدة، وهناك ينتشر بائعو الحلوى وأهمها ما يُسمى (الجوزية، الطحينية، المشبك، العوامة، لقمة القاضي، التفاح المغطى بالسكر وملون بالأحمر مع عود لحملها، البرازق، النمورة، الهريسة).



صفد ـ الحي القديم

أما طريقة تبادل التهاني فكانت تبدأ بعد صلاة العيد، والذهاب في موكب من المسجد الرئيسي إلى المقبرة.

كما كانت توزع أرغفة الخبز والتمور على الفقراء، ويقال اثناءها: «عن روح الميت»، أما ظاهرة صواني الكعك من الأفران القليلة في البلدة وإليها فكانت على

رؤوس الأولاد أو النساء محملة بالكعك المحشو إما بالجوز والصنوبر والسكر والقرفة، أو بالتمر وهو الأغلب. وكان شكلها إما هلالي كنصف الدائرة أو مثلثة.

ويتم تبادلها بين البيوت غالباً، إلى جانب ما يُسمى (المعمول)، وهو المصنوع من عجينة السميد والمحشو بالجوز واللوز والصنوبر على شكل قوالب خاصة. وكان يُفضل أن يصنع خبز خاص ليبقى فترة العيد يُسمى «خبز الطابع» لأنه مطبوع بقالب خشبي خاص ومدهون بزيت الزيتون..

وبعد العودة من المقبرة تبدأ الأسرة مجتمعة بزيارة عميدها مصحوبة بالأطفال لينالوا (المعايدة) بعد تقبيل اليد للكبير، أو لتناول السكاكر والملبس، ثم تجول الأسر على فروعها وأقربائها وجيرانها وتكثر حفلات الزواج في هذه الأيام.

عيد الأضحى:

كما هو الحال في معظم الأقطار العربية، لا بد من تقديم الذبيحة وتوزيعها على الفقراء وأخرى تبقى في البيت للقادرين. وكان التجمع الرئيسي يتم في (جامع الصواوين) ومنه إلى المقبرة والعودة كالعيد الصغير. ولكن كان يعقبه تقليد لاستقبال الحجاج العائدين، ولهذا تقليد موروث يتم بخروج جموع إلى خارج البلدة، حيث مقدم السيارات من حيفا الميناء الرئيسي. وتهافت الناس على تقبيل الحاج كأنما في ذلك بركة، ثم تتم زيارتهم لتهنئتهم والحصول على بعض الهدايا المباركة من تمر أو مسبحة أو علب من ماء (زمزم) أو الحناء وعود البخور، وفي أحيان نادرة بعض السجاد الصغير الخاص بالصلاة.

عيد الفصح:

أذكر أنه كان شاملاً للأحياء الاسلامية والحي المسيحي، وأصبح تقليداً لذبح الديك الرومي وتنافس الأولاد لتكسير البيض المسلوق الملون بألوان متعددة بواسطة أوراق البصل الأصفر، أو بعض الأزهار المتنوعة الألوان في البلدة، وزيارة أسر الحي المسيحي للتهنئة والتمني.

آخر أربعة بصفر (أربعاء):

كما هي الحال في كثير من المجتمعات في إيجاد مناسبات للتنفس والراحة ولاسيما في الربيع، كان هنالك مناسبة خاصة بالبلدة، وفيها تخرج الأسر إلى

الضـواحي الجميلة المزهَّرة المفروشة بالنبات الأخضر الذي كنا نطلق عليه اسم (الـربيـع) ولاسيما في منطقة الرجوم جنوب البلدة. وتفترش الأسرة الأرض واضعة أمـامهـا موائـد من (الخس واللوز الأخضـر، وأنـواع البـذور ـ بذر البطيـخ والقرع والحمص (قضامة) (الحمص المسلوق بالملح بدرجات مختلفة) والسكاكر، وكان يدعوها الصفديون النُقْل.

كما كان يضاف بعض منتوجات الربيع الأخرى مثل الزعرور بلونيه الأخضر والأحمر والعنّاب (ثمر يشبه الزيتون لكنه حلو الطعم). وهنالك مثلٌ من صفد (كمل النُقل بالزعرور) يقال حين قدوم وافد على شلة يضفي عليها حيوية ونشاطاً.

وربما تكون هذه المناسبة ابتهاجاً بالخلاص من الزلزال الذي دمّر المدينة مرتين كما مرّ معنا، أو ابتهاجاً بالربيع. وأصل التسمية في رأي بعضهم «الخلاص من التشاؤم من نهار الأربعاء في شهر صَفر».

التقاليد والفصول:

أشرنـا إلى تميز الفصول الأربعة في البلدة، وكجزء جبلي في منطقة شرق المتوسط، فمن الطبيعي أن تنعكس لمسات الطبيعة على عادات وتقاليد اجتماعية تبعاً لأسلوب الانتاج المتأثرة بهذه العوامل.

ـ الشتاء: يكاد يكون فصل الشتاء بسبب قسوته كما ذكرنا سابقاً، أكثر الفصول انـطباعاً في حياة الناس، ففي نهاية الخريف تبدأ وصول قوافل الجمال والدواب محملة بأكياس كبـيرة من الفحم المـأخوذ من الجرود والأشجار المحيطة بالبلدة. ويتجمع الناس للشراء تمويناً لقساوة البرد. وكان الفحم الوسيلة الوحيدة للتدفئة وله أماكن لخزنه في كل بيت مع الحطب. وأوعية معدنية لاشعاله (المنقل) وتجمع الأسـرة حولـه والأكف متـزاحمـة طلبـاً للدفـء. وبسبب البطالة شتاء، وُجد تقليد السهرات المسائية لكبار السن من الرجال وهي تأخذ اصطلاح (الدور) بين البيوت لمدة ثلاثـة أيام على المضيف أن يحتفـل بتقديم أنواع الحلويات المحلية في اليوم الثـالث؛ وأهمها (الكنافة الصفدية) تشبه (البقلاوة) ولكن بصناعة محلية بيتية، فورق العجـين يصنـع في البيوت على الصـاج ويجب أن يكون مخلوطاً بالحليب

والسمن، ورقيقاً ما امكن، أو (الكنافة النابلسية) التي تسمى محلياً (كنافة الرش) أو (المهلبية) من الحليب مع الرز أو مع النشاء أو مع شراب التوت أو عصير الليمون وفي بعض البيوت كانت الطبقات من هذه الأنواع فوق بعضها مغطاة بالجوز واللوز والصنوبر أحياناً.

ثم (الغارين) وهي حلويات أتى بها إلى البلدة سكانها من أصل مغربي (شمال أفريقية) وهي أقراص من العجين مع الحليب والمبللة بالقطر، (القطايف) إما محشوة بالجوز أو بالقشطة الآتية من مضارب البدو المحيطين بالبلدة.

وكان الاستعداد لاتقاء المطر يتم برص اسطحة المنازل الترابية بعد أن ينزع العشب منها (التعشيب) فعلى كل سطح مدحلة حجرية تُمسك من الجانبين بقوس خشبي أو حديدي وهي من الواجبات التي كان يكرهها الأطفال. في كل بيت تقريباً بئر تتجمع من اسطحة المنازل بواسطة ميازيب معدنية، ومؤونة الشتاء في هذا الطقس ضرورية فلا بد من الاحتفاظ السنوي بالسكر والأرز، والطحين (الدقيق) والسمن والزيت، في أواني خاصة (الخابية). كما تحفظ الخضراوات المجففة بواسطة الخيطان المعلقة في أعلى الغرف الكبيرة في البيوت القديمة. وكذلك لا بد من الاحتفاظ بالمستحضرات الحليبية كاللبنة والجبنة ثم الزيتون[٣] والعسل وأنواع المربيات من الفواكه المتوفرة على طريقة أهل دمشق. وتسمى وجبتها (الحواضر) لانها تكون موجودة في البيت.

الصيف وأثره:

في الصيف تمتلىء السوق الرئيسية بأنواع الفواكه القادمة من بساتين الوديان، أو القرى المجاورة ولاسيما العنب والتين والصبّار، والخوخ والرمان والتفاح. كما كانت ألوان من ثمار الجرود التي ينمو فيها فصيلة البلوط ومنها الميس، والخروب، والبطم وبعض الأشجار من هذا النوع كان في البلدة كأنه شخصية مسرحية كجزء وعلامة من طبيعتها..

---

٣ ـ الأكلة الشعبية في صفد وقراها وتتألف من العدس والبرغل المطبوخ بزيت الزيتون وتصلح أن تكون (زاداً) للراعي أو المسافر لأنها تؤكل باردة أو غير جديدة....

وفي الأيام الأخيرة تطورت الزراعة في الريف واغتنت بأكثر الفواكه المتطورة ولاسيما في البساتين وفي منطقة (الحولة). وأنواع الحبوب التي ذكرها المؤرخون استمرت ولاسيما القمح والشعير. وللقمح في صفد موسم خاص يعرض في السوق الرئيسية بأكياس كبيرة. ثم يسلق القمح ويجفف وينقل ليطحن برغلاً ثم يحفظ في (الكوارة) وهي وعاء كبير من الطين المطلي بالكلس الأبيض وفي أسفله فتحة تُسد بالقماش وتعبأ من أعلى، وهي جزء من البيت الصفدي إلا في البيوت العصرية.

ويروق لرجال البلدة أن يكون فطوره الصباحي في موسم التين والصبر من هاتين الفاكهتين بدلاً من (الحواضر) أما الأفران في السوق الرئيسية، فكانت في هذا الفصل تمتلىء بالقرويين الذين يتناولون (الصفيحة الصفدية)، أو اللحم المشوي على رغيف العجين في شكل شرائح والجلوس على كراسي صغيرة من القش حول (الطبلية) الطاولة غير المرتفعة.

وكان هواة صيد الحجل والحيوانات البرية والطيور الأخرى ينتشرون في الريف صيفاً ليلاً نهاراً.

الخريف:

لم يتميز عن غيره في بلاد أخرى فهو الموسم المدرسي وما يقتضي ذلك من تسجيل الأولاد. وكان على ابناء الصف الأول أن يقصوا شعورهم وهو شرط لجميع طلاب المدارس في مختلف المراحل. وفي هذا الفصل يبدأ استعداد التموين للشتاء الذي تحدثنا عنه.

الربيع:

وهو موسم الجمال والزهور وتلّون السفوح والوديان بما أتى عليه الشعراء والرحالة والزائرون من إعجاب في مناظرها واكتسائها بأنواع وألوان من الزركشة والعبير. ومما يزيد جماله الخلاص من قسوة الشتاء. وقد اتينا في مناسبات مختلفة على نواحي الجمال أو التقاليد في هذا الفصل الذي لا نستغرب أن يجعل الصهيونيون من صفد بلدة الفنانين والاصطياف ومنتجع للاستجمام والسياحة، كما كانت قبل احتلالها.

وتكثر في هذا الشهر النباتات البرية بأسماء محلية مثل: الخبيزة، العكوب، لسان الثور، خبز الغزال، قرص عنة، السنّيرية، الحمّيص، الفرفحينة، الدريهمة، الكلخ. الفطر وكانت غذاء إضافياً في هذا الفصل..

أمثلة من المعتقدات الشعبية:

في الثقافة المحلية ألوان موروثة كما هو الحال لدى الشعوب من الثقافات والمعتقدات التي تختلط فيها الحقيقة بالخيال. ولا تستند في أكثرها إلى اساس علمي. وكانت شائعة منذ العهود القديمة وزادت في العهد العثماني بسبب قلة التعليم وشيوع الغيبيات. فقصص العجائز للأطفال عن (الجن) والحكايات بهدف التسلية أو التربية، ولاسيما في ليالي الشتاء، وتفسير بعض الأمراض أو الأحداث، أو أصوات الطبيعة بأنها تعود إلى نشاط (الجن) كان أمراً مألوفاً، إلى جانب مواقع في الوديان أو بين الأشجار الكثيفة، أو الاحياء المهجورة التي يقال عنها بأنها (مسكونة بالجن) وأكثر الأمراض النفسية والعصبية كانت تُنسب أيضاً إلى (لمسة الجن) ولكن هذا تراجع مع مرور الزمن والمعاصرة.

أما علاج بعض الأمراض ولاسيما الأطفال. فكان يشيع بين العجائز ضرورة حماية الطفل من العين الحاسدة، فكان في حالة مرض الطفل يؤتى بعجوز معروفة بقدرتها على التفسير والقراءة الدينية تُسمى حركاتها (التسمْية) أي البسملة أو (التخريجة) أي المساعدة على إخراج الشر والسوء. وكان يؤتى بقطعة صغيرة من معدن الرصاص تُلقى على صحن معدني مُحمّى بدرجة حرارة عالية فتذوب مخلّفةً أشكالاً تبرز فيها قدرة العجوز على تشخيصها بالحاسدة غالباً، وتقنع الحاضرين بالشكل المرسوم وكثيراً ما تُوحي باحدى من لها علاقة اجتماعية بأهل الطفل ليست على وئام معها. وبالاضافة إلى ذلك، هنالك النذور في حالة الشفاء وغيرها.

وهنالك معتقد نادر، فحين يدب النزاع داخل الاسرة وفي بيت يجمع العديد من الابناء المتزوجين، أو الأقارب كان يُقال تفسيراً للنزاع بعامل خارج عن إطار العائلة، وبأن هنالك مَنْ رمى في البيت عظمة معروفة من عظام الخروف صغيرة الحجم تُسمى «عروس اللحمة»..

والاعتقاد بالكتابة جلباً للحظ أو دفعاً للشر كانت مورد رزق لبعض العاطلين من العجائز وكبار السن (كالحجاب والحرز)، والقاء بعض الكتابات في القبور، أو القراءة على ماء يُسقى الزوج طلباً للوئام والمحبة، أو للمرأة أملاً في الحمل إذا تأخر.

ـ أما التشاؤم، فكان ينبعث عن معتقلات كثيرة مثل رؤية (البوم) أو (الغراب) ونعيقه، أو عواء الكلب البطيء ليلاً وكان يُسمى (يجوج)، وحين يفقد شيء من البيت أو يفقد طائر أو شاة أو دجاجة مثلاً، كان يلجأ أصحابه إلى استئجار فتىً يصرخ بصوت عال بحثاً عنه ودعاء على من يخفيه.

ومن مظاهر التفاؤل، بداية نزول المطر المبكر، أو أصوات العصافير، أو رؤية الهلال أو القمر، أو بواكير نضج القمح والفاكهة واخضرار الزرع و(حكّة اليد) كانت تبشر بقدوم الخير، و(طنين الأذن) بأن أحداً معيناً يأتي على الذكر. و (حكة الجفن) تبشر بلقاء قريب أو صديق، وقراءة الفنجان تسلية أو ارتزاقاً كانت وسيلة لقضاء وقت الفراغ والاهتمام بالمستقبل الغامض وبالقدر.

الجوامع والزوايا في صفد:[٤]

من المعالم الثقافية الرئيسية لهوية البلدة العربية الاسلامية كثرة الجوامع والزوايا التي بنيٍ معظمها في العهدين المملوكي والعثماني، ومنها ما استمر صالحاً مستعملاً ومنها ماكان آثار خربة.

ـ أهم الجوامع:

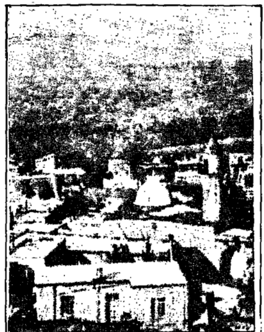
ـ الظاهر بيبرس أو الجامع الأحمر: اكتسب اسمه من حجارته الحمراء اللامعة وكان دار علم وصفه الرحالة أوليا جلبي (التركي).

الجوكنداري: في محلة الأكراد قرب دور آل النحوي وكان ينسب إليهم أحياناً.

ـ الجامع اليونسي الكبير أو جامع السوق: وبني في آخر القرن التاسع عشر ميلادي، اتخذه اليهود معرض صور.

---

٤ ـ راجع الموسوعة الفلسطينية مادة زوايا صفد وجوامعها.



منظر من صفد



أقواس في صفد

ـ الصــواوين : كان يسمى جامــع السـويقة وأسماه أوليا جلبي (جامع الشيخ عيسى) المدفون في ساحته، هدمه الصهيونيون وبقيت مئذنته.

ـ جامع الشيخ نعمة : وهو قرب دار الحاكم العثماني في سـوق السلطان، بني سنة ١٥٧٦م. الشيخ المذكور مدفون خارج بابه الجنوبي.

ـ جامع الأمير فيروز: بناه الأمير نجم الدين فيروز من أمراء الطبلخانات وكان مهدماً قبل النزوح.

ـ جامع سيدنا يعقوب : أو جامع الشعرة الشريفة كما يسمى جامع الغار في حارة القلعـة، جعله اليهود مخزناً لأخشاب أحد المصانع، وكذلك يوجد جامع خفاجة في حارة الجورة، والجامع الأنسي أو جامع الشهداء في غرب المدينة ويعرف بجامع الأربعين وجامع السنجارية أو جامع المدرسة وجامع الحمام العنبري بناه الظـاهـر بيبرس سنة ١٢٧٦م. وجامع ابن أبي النير أنشأه شخص من أهل صفد في القـرن الثـامن الهجـري وجـامـع الأمير أحمد بن صبح الكردي الدمشقي وكان نائب صفد سنة ١٣٥٢م.

ـ أهم الزوايا:
ـ زاوية الشيخ العثماني: أنشأها الشيخ العثماني قاضي صفد المتوفي سنة ١٤٦٥ في وسط البلدة.
ـ زاوية حسام الدين بن عبد الله الصفدي في حارة يعقوب توفي سنة ١٤٣١م.
ـ زاوية الشيخ شمس الدين: في أسفل حي الأكراد وشمس الدين هو شيخ الربوة الدمشقي محمد بن أبي طالب الأنصاري صاحب كتاب «نخبة الدهر، في عجائب البر والبحر» توفي سنة ١٣٩٧م. وكذلك زاوية الشيخ عمارة الشيخ أبو الريش وزاوية جب يوسف.

لمحة عن التربية والتعليم من خلال تطور المدارس كمّاً ونوعاً:

تأسست المدرسة الرشيدية في صفد عام ١٨٩٥م حيث ضمت عام ١٨٩٨م ـ ١٣١٦هـ نحو ٢٧ طالباً يعلمهم معلم واحد. أما في عام ١٣١٨هـ فقد ارتفع هذا الرقم إلى ٣٠ طالباً مع معلم واحد. أما المدرسة الاعدادية التي بناها الانكليز عام ١٣٠٠هـ فقد ضمت ٥١ طالباً.

وفي الحرب العالمية الأولى، بلغ عدد المدارس (في مركز القضاء وفي جميع ملحقاته) ١٠ مدارس رسمية و٢٢ مدرسة غير رسمية. وفي قصبة صفد ثلاث مدارس للذكور احدها للحضانة ومدرسة واحدة للاناث. وفي مدرسة الذكور الابتدائية الأولى (١٥٠) طالباً وفي الثانية ٧٠ طالباً وفي الحضانة ٦٠ صبياً. وفي مدرسة الاناث التي تقرر تفريقها إلى مدرستين ١٥٠ طالبة. وعلاوة على ذلك، فقد تأسس في كل قرية (سعسع، ترشيحا، حسينية، فرعم، جش، ديشوم) مدرسة ابتدائية.

وأما الـ٢٢ مدرسة المشار إليها سابقاً فقد تم اغلاق ١٣ مدرسة منها، بسبب انتسابها للدول المتحاربة أو لأنها بدون رخصة. وتقوم بإدارة المدارس الباقية جمعية الاليانس وجمعية (A.J.K) والنمساويون والألمان(٥).

---

٥ ـ بلادنا فلسطين. مصطفى مراد الدباغ، ص ١٢٣ ـ ١٣٣

وفي عام ١٩٣٠ ـ ١٩٣١ المدرسي، وُجد في صفد ثلاثة مدارس للبنين، وهي المدرسة الثانوية وأعلى صفوفها الثاني الثانوي، ومدرسة الصواوين، ثم مدرسة الجامع الأحمر وهما ابتدائيتان ومدرسة للبنات.

وفي عام ١٩٤٢ ـ ١٩٤٣ المدرسي، كان في صفد ثلاث مدارس للبنين ومدرسة واحدة للبنات، وجميعها رسمية وهي:

١ ـ مدرسة صفد الثانوية، وأعلى صفوفها الثاني ثانوي (التاسع).

٢ ـ مدرسة الصواوين الابتدائية، وأعلى صفوفها الرابع الابتدائي.

٣ ـ مدرسة الجامع الأحمر الابتدائية، وأعلى صفوفها الثالث الابتدائي.

وقد ضمت هذه المدارس (٥٠٨) طلاب يعلمهم ٢٤ معلمًا. وأما مدرسة البنات فكانت ابتدائية كاملة منذ عام ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨، وجمعت ٣٩١ طالبة يعلمهّن ١١ معلمة.

ويبين الجدول التالي (وهو منقول عن تقريري إدارة المعارف لعامي ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ و١٩٤٢ ـ ١٩٤٣) اعداد الطلبة ونسبهم المئوية الذين هم في سن التعليم:

	عام ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨	عام ١٩٤٢ ـ ١٩٤٣
عدد البنين الذين هم في سن التعليم من سن ٥ ـ ١٥	١٢٠٠	١٣٥٠
عدد البنات اللواتي هن في سن التعليم من سن ٥ ـ ١٥	١١٠٠	١٢٥٠

ـ النسبة المئوية لعدد الطلاب إلى عدد البنين الذين هم في سن التعليم من سنة ٥ ـ ١٥:

١٩٣٧ ـ ١٩٣٨	١٩٤٢ ـ ١٩٤٣
٦٥٪	٦٥٪

ـ النسبة المئوية لعدد الطالبات إلى عدد البنات اللواتي هنّ في سن التعليم من سن ٥ ـ ١٥ :

١٩٣٧ ـ ١٩٣٨	١٩٤٢ ـ ١٩٤٣
٪٣٥	٪٣٠

وفي شهر تشرين الأول من عام ١٩٤٧ ، كان في صفد ثلاث مدارس حكومية للذكور، وهي مدرسة الجامع الأحمر وهي ابتدائية ذات ثلاثة صفوف، ومدرسة (الصواوين ـ الزاوية)[٦]، وهي ابتدائية كاملة، وكانت تضم عشرة صفوف ثم المدرسة الثانوية، وهي تانوية تامة قدمت طلابها في صيف عام ١٩٤٧ لفحص الدراسة الثانوية الفلسطينية.

وكان في صفد أيضاً، مدرستان للبنات وهما حكوميتان، الأولى وتتألف من عشرة صفوف أعلى صفوفها الثاني الثانوي، والثانية ابتدائية تضم ستة صفوف. وقد بلغ عدد طلاب وطالبات هذه المدارس الخمسة في تشرين الأول من عام ١٩٤٧ ـ قرابة الألفين (٢٠٠٠ طالب وطالبة). وإضافة إلى ماتقدم، فقد كان في صفد مدرستان اهليتان للصبيان. أما الكلية الاسكتلندية المعروفة باسم (مدرسة سمبل)[٧] فقد نقلت قبل ذلك التاريخ بسنتين إلى مدينة (حيفا) وكانت ثانوية.

بالإضافة الى هذه المدارس الرسمية التي كانت في كلا العهدين العثماني والبريطاني تخضع لتوجيه السلطة الحاكمة منهجاً وهدفاً بما يبعد الطلاب عن الوعي القومي والثقافة السياسية، إلا أن وجود بعض المعلمين الملتزمين قد أفاد في تنمية الوعي في ظل ظروف الاحتلال.

٦ ـ كانت موزعة في بساتين (الزاوية) قرب السراي القديم (باب) السور والصواوين في حي الصواوين.

٧ ـ نسبة إلى قسيس يحمل هذا الاسم وأصبحت في العهد البريطاني مدرسة داخلية شهيرة في المنطقة وقد تعلم بها عدد لابأس به من أبناء الطبقة العليا في لبنان وفلسطين وكان متخرجوها يجدون قبولاً في وظائف الدولة وهي في مدخل الحي اليهودي في الشرق.

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية، جرت محاولات محدودة لتعليم الأميين مساء في مدرسة الزّاوية الابتدائية، كما جرت محاولة أخرى لافتتاح مدرسة خاصة لتعليم الطلاب الذين لاحظَّ لهم في المدارس الحكومية وبأقساط رمزيّة على أن يدعم القادرون من الأهالي هذه المدرسة.

وقد امتدت أساليب تقليدية من العهود السابقة فاستمرّت الكتاتيب تقوم مقام دور الحضانة سواء في الجامع أو الكنيسة أو لدى بعض النسوة اللواتي يقمن بتدريس مبادىء اللغة والدين، وأشهرهن (زبيدة البيك) و(مريم العيساوي) في حي القلعة، وكان لليهود مدارسهم الخاصة بهم من ابتدائية وثانوية ودينية إلى جانب المدرسة الصناعية.

أما من النواحي الصحية، فقد كان هنالك مركز حكومي للعناية بالأطفال وتوجيه الأمهات تشرف عليه ممرضات، ومستشفى حكومي رئيسي بعدد محدود من الأسّرة يقارب الخمسين في حيّ الرجوم ثم صيدلية حكومية وأخرى خاصّة وعدد من الأطباء اليهود القادمين مع الهجرة الغربية، وآخرون عرب[٨]. وهنالك عناية صحية بالمرافق العامة كرشّ المبيدات في المجاري العامة وإجراء حملات التطعيم للأطفال ضد الأوبئة المعروفة آنذاك.

---

٨ ـ لايتجاوز عدد الأطباء جميعاً السبعة.

الفصل الثامن

معركة صفد وسقوطها

بداية التوتر في البلدة ومظاهره:

المقاطعة: يعتبر صدور قرار التقسيم في ٢٩ تشرين الثاني من عام ١٩٤٧، نقطة تحول في مسار الصراع العربي ـ البريطاني ـ الصهيوني في البلدة. وتأزم التوتر الذي قاد إلى الانفجار الذي سار على مراحل من المظاهر والممارسات بين العرب واليهود، حيث جعلت من نهاية عام ١٩٤٧، ومطلع عام ١٩٤٨، ملحمة قتال يومية سادها جميع أنواع التصادم الممكنة في ظل الأسلحة المتوفرة. فمع تزايد الهجرة واتخاذ المستعمرات دوراً ارهابياً وعسكرياً، بدأت الخطوة الأولى من الجانب العربي بفرض المقاطعة على البضائع اليهودية، وعلى جميع ألوان الاتصال بالتجمعات المعادية. فقد بدأ شبان البلدة يقومون بحراسة مداخل الحي اليهودي وتفتيش الخارجين منه بحثاً عن البضاعة التي يحملونها. وكالعادة كان الأسلوب طوعياً عفوياً بعيداً عن التنظيم، ويتم باشراف المتحمسين من أبنائها وبتوجيه من أفراد برزوا في معارك الجهاد عام ١٩٣٦ وحتى عام ١٩٣٩، وباشراف النادي الرياضي.

ومع ذلك، فقد كان لهذه الخطوة أثر فعّال في الركود الاقتصادي لدى الجانب اليهودي، ولاسيما صناعة الملابس والأدوات المنزلية، وامتدت نقاط التفتيش إلى مفاصل طرق السيارات القادمة عن طريق طبريا أو حيفا ـ عكا إلى صفد.

وبتـواتـر أنبـاء تطـور الحـركـة الوطنية في المدن الفلسطينية الأخرى، وأنباء العـواصـم العـربية ومـوقفها من قرار التقسيم، والمداولات في أروقة هيئة الأمم المتحدة، تتزايد الحماسة في البلدة وتبدأ مظاهر فردية للحصول على السلاح الذي منه ماكان مخفياً تحت التراب، أو من بقايا ثورة (١٩٣٦/١٩٣٩)، أو من مخلفات محدودة من الحـرب العالمية الثانية أو حتى الأولى. وأصبحت القيمة الاجتماعية الأولى تعطى لحامل السلاح مهما كان نوعه أو صلاحيته. واتجهت الانظار إلى مورد السـلاح وبـدأت مجمـوعـات من صغـار الشبـان بالسفـر إلى دمشق لشراء بعض الأسلحة من جيوبها الخاصة. وكانت تعود بزهو حين تحصل على بضع مسدسات، مع أن الأسعار كانت مرهقة ومرتفعة جداً...

بروز قيادات محلية:

من الـطبيعي أن يعود أفراد من الذين أسهموا في ثورة ١٩٣٦/١٩٣٩، ليأخذوا دورهم الآن، ومن هؤلاء (عبد الله الشاعر، محمود عثمان) إلى البلدة، مزودين بخبرة محدودة في التدريب واستعمال السلاح والتنظيم. وكذلك بدأ شبان الجيل الجديد يبدي رغبته الأكيدة في الانضمام إلى مجموعات العمل الوطني والجهاد.

ومن خلال بعض القيادات التقليدية التي كانت على اتصال بالهيئة العربية العليـا في القـدس. تمّ تأليف ماسمّي (اللجنـة القومية) التي ضمت بعض وجهاء من البلدة، وروعي في تأليفها الأساس العائلي والوجاهة. واتخذت مقراً لها في بعض المضافات ثم تحولت إلى المدارس ثم إلى السرايا القديمة. وكانت اللجنة الأولى تتألف من السادة:

المحـامي عارف حجـازي ـ المحامي عبد الغني النحوي ـ الشيخ سليمان سعد الدين ـ التاجر عبد القادر الأسدي ـ التاجر مصطفى النقيب ـ الملاك عبد القادر حسين عبد الرحيم ـ رئيس البلدية زكي قدورة ـ الملاك الأستاذ سعيد مراد (رئيس بلدية سابق) ـ التاجر أحمد الكبرا ـ الملاك أمين محمد الخضراء ـ التاجر عبد الهادي كاملة.

وإلى جانب مراعاة الوجاهة التقليدية والعائلية، كان يقصد من تأليفها أن تشمل ذوي النفوذ المادي والمعنوي، حتى تتقدم عملية التبرع وتأمين الضروريات التموينية والعسكرية وإشراك أكثرية السكان بالواجبات المختلفة.

مشاركة المواطنين العرب:

لم يقتصر التوتر على فلسطين وحدها، فالشعور القومي العربي الذي ولدته أحداث فلسطين وثوراتها وتضحياتها لم يكن بمعزل عن جماهير الاقطار العربية المجاورة أو البعيدة. ولا سيما بعد بروز الخطر الصهيوني. ففي صفد بدأنا نرى بعض الشباب المتحمسين الذين وفدوا بأسلوب طوعي وفردي في البداية، يشاركون أبناء البلدة نضالهم.

ويصعب على من يؤرخ الأحداث التي وقعت بالبلدة في هذه الفترة، أن يتجاهل شخصية عربية من سوريا، اتصفت بالحماسة والتضحية وهي (احسان كم الماز) الذي ترك الجيش السوري والتحق بالمجاهدين مع بعض رفاقه الذين نذكر اسماء بعضهم مثل: أنور الملاح، ناظم الحريري، بشير الداغستاني، أبو شفيق السباعي، حمد سعيد رشواين. الذين تعاونوا مع مقاتلي البلدة بعد أن حصلوا على أسلحة فردية، وقاموا بعمليات جريئة جداً خلدت اسم هذا الشاب في نفوس أبناء صفد.

فكان يقوم ليلياً بعملية نصب كمين للمواصلات اليهودية سواء في البلدة أو على طريق المستعمرات، أو بنسف منزل اتخذه الاعداء حصناً لهم، إلى جانب التدريب والتنظيم على القتال والسلاح وحرب العصابات، التي وجدت في حماسة شباب البلدة الذين تعاونوا معه، أرضاً خصبة للقيام بأعمال نادرة في الشجاعة.

مراحل المعركة:

المرحلة الأولى: بسبب حجم البلدة ومعرفة أحداثها أثناء المعارك يمكن لمن عاش في تلك الفترة أن يذكر أهم الصدامات التي حصلت، كما يذكر المواقع الجغرافية لعقد المواصلات، جعل من الصعوبة على كل من العرب واليهود التحرك بأمان. وكان لابد من حسم الموقعة لأحد الطرفين. فمدخل الحي اليهودي يأتي عن طريق واحدة لابد أن تمر من أمام (حي الأكراد) العربي كما كانت طرق الأحياء

الـرئيسية العـربية، خاضعة إما للحي اليهودي، أو لمستعمراته التي كانت من أهداف إقامتها تحقيق هذا الغرض منذ تأسيسها. . .

وفي مذكرات شخصية لأحد أبناء البلدة الذين كانوا في خضم الأحداث وهو السيد فارس الخضرا، نعثر على تفصيلات شاملة وإشارات وتعليقات تعكس مشاعر المواطنين ورؤيتهم للأحداث في إطار مجتمعهم.

وهنالك إجماع لدى جميع من تناول قصة معركة صفد من الجانب العربي، على ندرة السـلاح وقلة الـذخيرة وصعوبة الحصول عليها، أمام كثرتها وتدفقها وحـداثتهـا لدى الجـانب اليهـودي، على الرغم من ارتفاع معنويات العرب في البـلدة، الـذين كانـوا مازالـوا يحمـلون ذكـريات انـتصـارات أحـداث ١٩٢٩/١٩٣٦/١٩٣٩، ويرون أن حيّاً يهودياً محاصراً لايمكن أن يصمد أمام إرادة الأكثرية العربية.

وباعلان الانكليز عن نيتهم الجلاء في ١٥ أيـار ١٩٤٨، بدأ الجانبان العربي واليهودي في تكديس المؤونة من المواد الغذائية لمدة يطول حصارها. ويشير فارس الخضرا إلى أن اليهود في الحي، كانوا لايميلون أثناء الحرب إلى الصدام مع العرب بل ويرغبـون في العيش المشـترك كما ألفـوا لولا تدخل قادة من اليهود الأجانب القادمين بأحقاد الحركة الصهيونية.

التحصينات اليهودية:

على طول التماس بين الحي اليهودي والأحياء العربية أقام الصهاينة مراكز حصينة كالسوار حوله وهي:

المـركـز التجـاري: وهو بناء حصين يشرف على السوق العربية الرئيسية وماجاورها. وعلى الحي المسيحي وحارة الوطاة، ويجاوره ملجأ العجزة الذي تحول إلى حصن أيضاً في غرب البلدة.

دار الحداد: حصنت لتشرف على طريق الشارع الرئيسي من الجانب العربي قرب مركز البوليس الواقع بين الجانبين، وبالقرب منه يقع مخزن (لولو) أيضاً غرب القلعة.

فندق المركز (هرصيليا): ويشرف على انحدار القلعة فوق الحي اليهودي.

فندق رزق: ويقع شمال القلعة ويطل على الحي اليهودي (وكان ملكاً لعربي هو رزق بشوتي)

المدرسة الصناعية: وهي دار صاحبها عربي استأجرها اليهود قديمًا وأصبحت مدرسة صناعية، وتتحكم بأكثر الأحياء العربية لوقوعها في الجانب الشرقي للقلعة. كما تشرف على مفصل طرق السيارات وقريبة من دار الحاج فؤاد الخولي التي يحتلها الجيش البريطاني على مدخل الحي اليهودي الرئيسي من المشرق.

بناء مدرسة سمبل: الذي يشرف على طريق صفد ـ عين الزيتون.

وحول هذه المراكز المذكورة آنفاً، سالت دماء كثيرة وجرت مواقع عديدة سيرد ذكرها أثناء الرواية، كما تمت تحصينات هذه المواقع فور اعلان التقسيم بإشراف البوليس البريطاني وحمايته.

الشرارة الأولى:

في ١٩٤٧/١٢/١٣. دخل شاب يهودي إلى السوق العربي ولدى رؤيته من الجموع التي ظنت بأنه قادم لاعمال تدمير أو ارهاب، هاجمته وقتلته ثم دفن خارج البلدة. فنقل البوليس البريطاني الخبر إلى الجانب اليهودي الذي سارع إلى اطلاق الرصاص بأسلوب عشوائي وفجائي. ورد العرب من جانبهم ولم تكن تحصيناتهم وطرقهم قد هيئت بعد. واستمرت المناوشات وأعمال القنص بعد ذلك التاريخ بين الطرفين. وكان العرب يحذرون الانتقام البريطاني دائمًا.

وفي ١٩٤٧/١٢/٢١، أطلق حراس المدرسة الصناعية اليهود النار على شاب من سكان حارة القلعة الذي كان يقوم بالحراسة فيها، وهو (حسني القوصي) بينما كان بعض المسلحين يقيمون في الدور المجاور. وهي دور كبيرة يختفي فيها المجاهدون عن أعين السلطة البريطانية، فتحمس بعضهم وصعدوا إلى القلعة ونشبت معركة منذ الصباح حتى العصر وأصيب من العرب الشاب أحمد سعيد البيك في عضده ولم يلبث أن استشهد بسبب النزف.

وفي ١٩٤٧/١٢/٢٥، قامت مجموعة يقودها (فايز قدورة)[1] بمهاجمة مستعمرة (عين زيتيم) التي كانت تشل المواصلات بين صفد وقرى الشمال ولكن سرعان ماتدخل الجيش البريطاني.

وفي مطلع كانون الثاني من عام ١٩٤٨، حل في البلدة الملازم (احسان كم الماز)، وكان قد تعرف بعض شباب البلدة الذين ذهبوا للتدريب في معسكرات قطنا (سوريا) مع مجموعة من رفاقه كما قدمنا، وأخذوا في تدريب المجاهدين ونقلهم إلى أساليب نظامية وقتالية أفضل وحاز على ثقة ومحبة الاهلين. وكانت باكورة نضاله نسف عدد من بيوت مشروع مستعمرة غير مكتملة في جبل كنعان حول قبر الشيخ (محمد حديد)[2] على طريق صفد ـ الجاعونة. وكان اليهود قد نصبوا كمائن من الالغام حولها وبفضل خبرته الغنية لم تقع إصابات بين العرب، ثم تابع التدمير مع نفر محدود من شبان البلدة فقام بنسف محرك المياه لمستعمرة (مشمار هايردن). ومطعم الضباط الانكليز في معسكر الجاعونة. وفي الاسبوع نفسه وبينما كان يكمن قرب مستعمرة (نجمة الصبح) هاجمهم الجنود البريطانيون واشتبك معهم وأوقع إصابات فيهم. ولم يستطع نقل جريح من مجموعته (نجدة هاشم) من حلب، ولكن قام بعض شباب (حارة الوطاة) باختطافه من المستشفى الحكومي بعد أن قيدوا حراسه البريطانيين ثم قام اليهود بالرد على هذه الأعمال بنسف بيت غير مكتمل في قمة جبل (بيريا) الخالية من السكان والبيوت، ثم هاجموا قرية عين الزيتون ونسفوا بيت (محمود حمد) الذي استشهد وهو يدافع عنه. كما قاموا بنسف (عبارة) قرب (ميرون)[3].

الحصار والحصار المضاد:

أوجد الضابط (إحسان كم الماز) ومعاونوه نظاماً محكماً لحصار الحي اليهودي ومنع وصول النجدات والمؤن إليه، ولا سيما من الطريق الرئيسي المار من جبل كنعان. ولكن اليهود كانوا يستعملون السيارات المصفحة المحروسة من قبل

---

١ ـ من الشباب الذين قاموا بدور بارز طوال مرحلة القتال في البلدة.

٢ ـ قبر أحد الصالحين وينسب إلى عائلة معروفة في صفد.

٣ ـ العبارة: ما يبنى من أقنية تحت الشوارع لتعبر منها المياه في موسم الأمطار.

البريطانيين. وصار الصدام مع هؤلاء أمراً لامفر منه. أما اليهود فقد قاموا بدورهم بمنع تحرك السيارات ودخولها إلى البلدة معتمدين على مستعمرة (عين زيتيم) وبناء فندق (سارة) فوق قمة جبل كنعان، ومراكز الحي اليهودي المقابلة لطريق (عين الزيتون). وكان أول شهيد في سيارة على هذه الطريق هو الشاب (ربحي قدورة) بأسلوب القنص، ورد العرب بمحاولة جديدة لاقتحام مستعمرة (عين زيتيم) حين تعرضت سيارة قادمة من دمشق تقل الضابط (إحسان كم الماز) والسيد (محمد الخضرا)[٤] لنيرانها مما اثار حماسة مجموعة من المجاهدين لمهاجمتها بعد تطويقها. ولكن سرعان ماتدخلت المصفحات البريطانية وأجبرتهم على الانسحاب.

ندرة الذخيرة: مع تطور الأحداث والصدام، شعر العرب بالفرق بين أسلحتهم وأسلحة الأعداء. وبدأت وفود من (اللجنة القومية) تتردد على دمشق للاتصال باللجنة العسكرية التي ألفتها الجامعة العربية. ولكن لم تكن تحصل إلا على أعداد محددة جداً من القطع الفردية. وكان الحصول على رشاش يعتبر نقلة نوعية وفرصة كبرى. واستمر شراء السلاح من قبل الاهلين على رغم ارتفاع الأسعار الباهظة. وأوفدت اللجنة القومية اثنين من البلدة هما السيدان (الحاج فؤاد الخولي، وسعيد عزيز عيسى) إلى مصر لشراء السلاح من البدو ومخلفات معركة العلمين في الحرب العالمية الثانية.

وبدأ التدريب على أعمال التدمير والنسف تشديداً للحصار، فكثرت كمائن التصدي للباصات المصفحة على طريق (الجاعونة) صفد بالالغام التي توضع في العبارات ويمد لها شريط قصير، إلا أن الوسائل البدائية كثيراً ماكانت تفشل. وفي إحدى المحاولات التي قام بها (إحسان كم الماز) مع مجموعة تحت امرته، ومعاونه فارس الخضرا بتاريخ ٢١/٣/١٩٤٨، لم يوفقوا بتفجير اللغم لأكثر من مرة وهم ينتظرون مرور السيارات اليهودية المصفحة، إلا في المحاولة الثالثة. وحين أقدم المقاتلون على الاستيلاء على سلاح الباص المنسوف طوقتهم قوة بريطانية كبيرة واشتبكت معهم واستطاعت أن تأسر جريحين هما (يوسف الكبرا وعبد الهادي

---

٤ ـ من الذين لعبوا دوراً بارزاً طوال فترة القتال.

الحجـة) وقـامت بتسليمهما إلى الجهات الصهيونية في قرية الجاعونة. وهنا وجّه الأهلون انذاراً للسلطات البريطانية بأنها ستطلق النار على أي جندي يدخل البلدة حتى يتم تسليم الأسيرين.

وفي اليوم الخامس قام الانكليز بالإتيان بهما، إلا أن الأول كان قد قُتل من قبل اليهود بتهمة نسف الباص، والآخر كانت تبدو على جسمه آثار التعذيب الوحشية.

وبسبب إصرار البريطانيين على حماية القوافل اليهودية، لجأ المقاتلون إلى أسلوب نسف التحصينـات التي ذكـرناها حول الحي اليهودي أو ماجاورها من البيوت. وبرز في هذا المجال أبطال من الشبان كان أحدهم (عبد الله العينين) صغير الحجم والسن ويصر على حمل الالغام والتسلل بها تحت البيت الهدف. فقام مع رفيقه(حسن طافش) بنسف موقع حصين في مدخل الحي اليهودي قرب مركز البوليس البريطاني، وكثيراً ماكان يعيد المحاولة أكثر من مرة حين لايشتعل الفتيل أو لاينفجر اللغم.

في مطلع شهر نيسان جرت اشتباكات عديدة حول المدرسة الصناعية ونجح العرب في تدمير جزء منها. ولكن الجيش البريطاني أجبرهم على تركها وعادت إلى القوات الصهيونية أكثر تسليحاً وعدداً واستعداداً. فصمم هذا الشاب على التسلل وحـده يحمل لغمًا ولم يرغب بالحماية حتى لاينكشف امره. ولكن كانت المحاولة مستحيلة فقـام بعض المقـاتلين بالتسلل إلى أقرب الأماكن بقيادة (محمود عثمان الكردي) و(عبد الله الشاعر) وامطروا البناء بوابل من الرصاص. واستطاع الشاب أن يتسلل على الرغم من وزن اللغم الذي يحمله ولم يُوفق في إشعال الفتيل. وأصر على العودة أكثر من مرة بعد أن أوصل اللغم تحت البناء ولم يوفق في العملية.

وفي ١٩٤٨/٤/١٩ أصر المقـاتلون على احتـلال المـدرسـة رغم المقاومة اليهـودية، يساعدهم البريطانيون الموجودون في بناء فؤاد الخولي القريب، وكان الهجوم من موقع لايتوقعه اليهود، أي من القلعة نفسها بعد تشديد الحراسة العربية عليها حماية لحملة الألغام، التي تم دحرجتها من سفح القلعة إلى المدرسة وتفجيرها

بالرصاص حتى تم احتلالها. وكان الجانب اليهودي بعد أن يئس من البقاء فيها قد ترك لغمًا موقوتاً فيها أودى بحياة خمسة من المجاهدين.

ويمكن أن نقول بأن الأعمال العسكرية قد تطورت سريعاً في إثر هذه الأحداث المتلاحقة. وكان الفضل في ايجاد أشكال تنظيمية لمجموعة من الرقباء الذين جاؤوا مع الملازم (إحسان كم الماز) أو التحقوا فيها بعد، وللعدد المحدود من الأفراد الذين رافقوه في عملياته، وأصبح هنالك نوع في التخصص منها ماهو للحراسة، أو التدمير، أو التموين. أما الاسعاف فقد دعت (اللجنة القومية) فتيات بعض الأسر المتعلمات، أو اللواتي لديهن خبرة في التمريض للالتحاق بالمستشفى الرئيسي في (الرجوم) جنوب البلدة. كما انشئت مراكز في بعض المدارس وتخصص أفراد لمرافقة المقاتلين بهذه المهمة.

كما كان هنالك من اختص بالقنص ولا سيما بعض أفراد السرية الاردنية التي التحقت بالبلدة، وبعض أفراد من الأقطار العربية المختلفة من المتطوعين، منهم شاب أردني من منطقة (اربد) وآخر من سكان البلدة أصله من دمشق (محمود قاسم الشعار) الذي كان يتبع تكتيك القنص والتنقل بين أحراش القلعة. وكان دقيق الاصابة. أما أشهرهم فهو صياد البلدة الرئيسي وصاحب سيارة أجرة من المدينة يدعى (محمد علي العينين) وهو مضرب مثل في دقة التصويب، وقد بدأ مبكراً في قنص أفراد من الحرس اليهودي من خلال الطاقة (الفتحة) التي يصوبون منها بندقيتهم.

استمرار أعمال النسف بين الطرفين:

اكتشف أحد أبناء البلدة وهو (حسين حديد) أن هنالك أقنية قديمة مهجورة نطلق عليها باللغة الدارجة (السرداب) قد يصل بعضها إلى أطراف الحي اليهودي من جهة المركز، فأقنع مسؤولي التدمير ضرورة استغلالها في نسف البيوت الملاصقة للمركز التجاري الحصين. وتطوعت مجموعة فيها (متطوعان من مصر وثلاثة من سورية) مع عدد من أبناء حي السوق وحملوا الالغام داخل الاقنية القديمة المهجورة. ولكن لم يوفقوا في إشعالها جميعاً وعادوا بعد أن تم اشتعال بعضها ونسف بيت كبير كان يحجب المركز التجاري. ورد اليهود في اليوم التالي

بنسف جانب من دار عربية متطرفة في المنطقة نفسها بعد أن فشلوا في إكمال مهمتهم ليقظة الحارس العربي.

الاستعداد لاحتلال المراكز الأمنية البريطانية:

أصبحت بعض الاسماء التي اطلقت على المراكز الحصينة الفاصلة بين الحي اليهودي والأحياء العربية، معروفة وفي مقدمتها البناء العسكري الحصين في قمة جبل كنعان على الطريق الرئيسية إلى صفد(Tiger Building) (٥)، وهو عبارة عن قلعة حصينة تحوي ورشة سيارات ومصفحات ومكاتب للضباط البريطانيين وبيوت نوم وطعام مع أبراج للمراقبة وأسلاك شائكة كثيفة. ثم بناء (الحاج فؤاد الخولي) على مدخل الحي اليهودي، وكان يحتله الجيش البريطاني حماية لليهود. ثم مركز البوليس في البلدة على المدخل الآخر للحي اليهودي من الشارع الرئيسي، أما القلعة وهي أهم مراكز البلدة، فكانت بيد المقاتلين العرب.

كان الأثر الفعّال في ذلك اليوم لافراد البوليس العربي بالمركزين، حيث يعملون ويعرفون المداخل والمخارج، وبالاتفاق مع القادة المحليين كانوا على أهبة الاستعداد في الداخل. في الوقت نفسه، كان المقاتلون من أبناء البلدة يقومون بالتجمعات الموزعة بهدف احتلال المراكز الثلاثة، وبتعميق الخنادق الموصلة إليها ومراقبة الأماكن التي يمكن أن يزحف منها الجانب الصهيوني لردعه.

وعند الساعة الثالثة عصراً، كانت إشارة الانطلاق بعد أن ابتعدت السيارات البريطانية من طريق جبل كنعان باتجاه (الجاعونة ـ روشبينا) تحرسها المصفحات في المقدمة والمؤخرة. وهنا، كانت الأوامر إلى البوليس العربي في الداخل بالبدء في اطلاق النار باتجاه المراكز اليهودية، بينما تلتحق القوات من الاهالي وبعض المتطوعين بهم في مركزهم. وفي خلال ساعة واحدة كان الضابط (إحسان) الذي وصل في اليوم نفسه من دمشق، ينتقل من مركز لآخر بعد احتلالها جميعاً.

---

٥ ـ في بداية التوتر بدأ بعض العاملين في المؤسسات الحكومية المدنية بخطف السيارات إلى لبنان وسورية وتسليمها إلى جيش الانقاذ مقابل الحصول على بندقية، وقد قام أحد المجاهدين وكان يعمل في مرآب هذا المركز بخطف مصفحة بريطانية حديثة ضخمة كانت أفضل مالدى جيش الانقاذ والجيوش العربية آنذاك وهرب فيها إلى دمشق وحصل على بندقية والتحق بجيش الانقاذ.

لم يقتصر جهـد أبنـاء البلدة على هذه لمراكـز الـداخلية، بل في اليوم الأسبق ١٥/٤/١٩٤٨، ذهبت مجموعة منهم لتعزيز مركز (النبي يوشع) في شمال البلدة ذات الموقع الاستراتيجي للاشراف على الحولة. وكان عددهم خمسة أفراد. ولم يلبثوا أن دخلوا المـركـز بعـد انسحـاب الـبريطانيين ثم التحق حوالي عشرين مجاهداً من أبناء القرى المجاورة، واثنان من أفراد جيش الانقاذ مع بعض السلاح والذخيرة[٦].

ولكن القوات اليهودية لم تلبث أن زحفت نحو هذا المركز الحصين من مستعمرات الحولة بمصفحات وقوات برية، ففشل هجومها بعد مقاومة ضارية. وغنم المجاهدون الغاماً ورشاشات وذخائر. وفي العشرين من نيسان أعاد العدو الكرّة بقوات كبيرة وكان قد وصل بعض أفراد جيش الانقاذ لتعزيزه لايزيدون عن ثمانية أفراد. واستطاع المهاجمون أن يصلوا إلى الشريط ثم قرب الحائط للمركز الحصين تحت وابل من الرصاص. إلا أن بطولات فردية للمدافعين التحمت مباشرة وبالقنابل اليدوية مع المهاجمين مما اضطرتهم للتراجـع في منتصف النهار، مخلفين أربعين جثة على غير عادة اليهود في الاصرار على سحب الجثث استناداً إلى عقيدتهم في ذلك. ويروي الذين شاركوا في المعركة من أبناء البلدة (أمـين الرفاعي) و(محمد الخضرا) بأن المركز تسلمه ضباط جيش الانقاذ ومنهم (شفيق عبيسي) و(صلاح الشيشكلي) شقيق أديب، الذي عيّن قائداً لجيش الانقاذ في اللواء الشمالي.

التطور الجديد بعد احتلال المراكز:

لجأ الاهلون إلى تعزيز مواقعهم بعد رد هجومات يهودية متكررة في ١٨/١٩ نيسان ١٩٤٨ وبعد أن أفشلوا محاولات لنسف عمارة (الحاج فؤاد) ومركز البوليس في البلدة، إذ انفجـرت الالغـام بحامليها وافقدتهم بعض التحصينات المقابلة. وفكر الاهالي بسّد المنافذ الرئيسية بقيادة سيارة تحصّن فيها السائق بطريقة أولية بأكياس من الرمل والحجارة ليضعها في منتصف الشارع، ولكنها تعطلت وبقيت مكانها مما اضطر بعض الأفراد إلى التقدم لنسف البيوت المجاورة. وقد استشهد في هذه العملية أفراد من المتطوعين ومن الأهالي.

المرحلة الثانية:

أما التطور الرئيسي في البلدة فقد برز بعد وصول طلائع من جيش الانقاذ بأعداد

---

٦ ـ المعلومات من مذكرات شخصية لمواطن من أبناء البلدة شاركوا في هذه العمليات.

محدودة ومن طريق برية وحيدة عبر (وادي الطواحين) الذي لايتسع طريقه إلا لدابة واحدة وللرتل الاحادي حسب التعبير العسكري. وهنا تبرز مشكلة التناقض في القيادة والاختلاف في التفكير والتنظيم والاسلوب بين الوافدين من صغار الضباط مع متطوعيهم، وبين القيادات من أهل البلدة ورفاقهم من المتطوعين السابقين. وتكثر الروايات حول الأيام الاخيرة لمعركة صفد ولكنها تلتقي جميعاً على التخبط في الجانب العربي من ناحية التنظيم والاستعداد، والافتقار إلى استراتيجية واضحة الاهداف والمراحل، والافتقار إلى قيادة مركزية عليا تجند الطاقات العربية المتوفرة آنذاك، على رغم واقعها وعمق النفوذ الاستعماري في المنطقة ومؤسساتها السياسية حتى لدى الدول حديثة الاستقلال.

والذي يعود إلى مذكرات بعض القاده الصهيونيين، سواء في الجانب السياسي أم الجانب العسكري، يلمس الفرق الشاسع بين منهجين فكراً وتنظيمًا وممارسة. وما التفصيلات التي سنعرج عليها في ذكر أحداث البلدة في الأيام الأخيرة سوى مؤشرات تلقي بالضوء على هذا الواقع على رغم ماتحمله من مرارة والم وذكريات حزينة.

ففي ١٨/٤/١٩٤٨، نرى سرية من الجيش الاردني تدخل البلدة بلباس موحّد الهندام والسلوك النظامي العسكري، مع أنها كانت في معظمها من المتطوعين بقيادة ضابطين سرعان ماشاع اسماهما وأصبحا فيما بعد موضع تساؤل وتضارب في الآراء والتحليل بسبب موقفهما من القوات المحلية من ناحية، وعلاقتهما بالقيادة العسكرية الأردنية آنذاك من ناحية أخرى، وهما الرئيس (النقيب ساري فنيش) والملازم (أميل جميعان).

كما وصل في الوقت نفسه الملازمان (هشام العظم) و(عبد الحميد السراج) على رأس ثمانين متطوعاً من سوريا. وكان النقيب (ساري) يحمل أمراً من قيادة جيش الانقاذ بتعيينه آمراً لحماية صفد، وأميل جميعان مساعداً له. وحين يبدأ هذان بمحاولة اتخاذ اجراءات عسكرية على المؤسسات في المدينة، يبرز التناقض بن الجديد والمألوف، والدهشة كانت في شل يد الملازم (إحسان كم الماز) ورفاقه. كذلك في عدم السماح للمقاتلين بالاستمرار في عملياتهم التي ألفوها من نسف التحصينات أو القيام بهجومات خاطفة، أو اعتراض قوافل السيارات اليهودية. فحين يَطلبُ أحد مقاتلي البلدة وهو (فارس الخضرا) الذي ألِّف قيادة الأفراد المختصين بالتدمير، أن يستمر في أعمال النسف،

يقاطعه (أميل جميعان) بتحديد المواقع على الخريطة مثلاً، وضرورة التمهل عدة أيام أو غيرها من الأسئلة الفنية والعسكرية.

كما لجأ الضابطان الاردنيان إلى تسلحهما باعلان الاحكام العرفية وإجراء تعيينات من القادة المحليين كآمري السرايا أو مسؤولي المراكز. ومن الطبيعي أن يجدا من يلوذ بهما رغبةً أو رهبة. ولكن المتعلقين (بإحسان كم الماز) استمروا في العمل معه. وكانت الفترة قد تميزت بتبادل التدمير بين الجانبين العربي واليهودي على خطوط التماس دون موافقة القائدين الجديدين. ففي ١٩٤٨/٤/٢٨، قاد الملازم (إحسان كم الماز) مجموعة لتدمير مواقع حصينة قرب المركز استشهد فيها كلٌ من: زياد العظم[٧]، الذي أصر على أن يفسح الطريق بجسده للوصول إلى الفندق المقابل للمركز فانفجر فيه اللغم. وروى أحدٌ الواقفين على مقربة منه وهو المرحوم (زهير فلاحة) بأنه كان يبتسم حين أطاح اللغم بساقيه سائلاً رفاقه أني تقدموا، مما دفع بأحد أبناء البلدة وهو المرحوم (محمود المسلمانية) إلى التقدم فانفجر فيه لغم اخر. وحين حمله رفاقه خارج المعركة كانت أمه تسأل عنه، وهو محمول إلى جانبها دون أن تدري باستشهاده وأُخفي النبأ عنها لكبر سنها ولأنه وحيدها حتى اليوم التالي. وفي هذا اليوم نفسه، كانت الأنباء تنتشر عن نية (إحسان كم الماز) بمهاجمة الحي اليهودي والمعنويات مرتفعة، مما جعل الشباب يندفعون نحو الحي اليهودي من ناحية المركز التجاري، ولكن سرعان ما نزل الضابط (أميل جميعان) مهدّداً وطالباً اليهم الانسحاب والعودة. وكان بعض المتطوعين الاردنيين في مقدمة المهاجمين، فاستشهد أحدهم وكان معروفاً ببطولته وصموده في مركز البوليس إلى جانب المرحوم (سعدي الحاج ياسين) من أبناء البلدة. وجُرح بعض المهاجمين أثناء الانسحاب.

وهنا اتخذ (ساري فنيش) قراراً بابعاد (إحسان) الذي اضطر للانسحاب متبوعاً باعداد من أبناء البلدة راجين بقاءه واستمروا في صحبته حتى الحدود السورية بل ومنهم من دخل معه إلى دمشق. وآخر جملة خاطب بها الاهالي: «يا أهالي صفد ودعوا بلدكم فسوف يسلمها ساري وأميل إلى اليهود قريباً».

في الوقت نفسه، كانت الأنباء تتوارد عن تحقيق اليهود لاهدافهم في شمال فلسطين، فأنباء سقوط مدينة حيفا في ١٩٤٨/٤/٢٤، ومارافقها من إشاعات حول قدوم اعداد كبيرة من اليهود من أوروبا الشرقية عن طريق البحر مع أسلحة متطورة. كما

---

٧ ـ من متطوعي سورية.

كانت تشاهد اعداد كبيرة من النجدات تصل إلى البلدة. لكن سقوط القرى المجاورة المحيطة بالمدينة أثّر في المعنويات مثل (الجاعونة، فرعم، الطابغة، المغار، المنصورة، القديرية) مما جعل العدو يحيط بالمدينة ويشدد الحصار عليها من الجنوب والشرق.

وفي مطع شهر أيار تطور القتال في منطقة الجليل بمحاولة قوات من جيش الانقاذ مهاجمة بعض المستعمرات، مثل مستعمرة (الهراوي). إلا أن اليهود قاموا بضربة قاصمة حين هاجموا قرية (عين الزيتون)[٨] ودمروها وانتقلوا إلى (بيريا) واحتلوها والمسافة بينهما لاتتجاوز مئات الأمتار. وكان سقوط القريتين وهما على مرأى من أهالي البلدة، فاجعة مذهلة وزاد الأمر خطورة منع (ساري) و(أميل) الاهالي من نجدتهما. وفي الاسبوع الأول من أيار ١٩٤٨ وبعد أن تم الاتصال بين المستعمرات اليهودية والبلدة دون عقبات بسبب تدمير القريتين، توالت النجدات الكبيرة على الحي اليهودي باشكال هي أقرب إلى الجيش النظامي في عشرات السيارات وعلى دفعات متتالية أمام أعين الاهلين المذهولين..

دور متطوّعي جيش الانقاذ:

في هذه الأثناء كانت تجمعات من جيش الانقاذ تتوافد على القرى العربية مثل (الرأس الأحمر) و(الصفصاف) و(ميرون). وكان مسرح تحركها يمتد إلى عكا وقراها، ولكنها كانت فقيرة التدريب والتسليح، ما عدا أفراداً من الضباط الصغار المتخرجين من الكلية العسكرية حتى قبل إتمام دوراتهم من سوريا. وأكثر هؤلاء أصبحوا من ذوي الأسماء اللامعة في تاريخ سورية فيما بعد. وربما لتعرفهم على حقيقة المأساة الفلسطينية مباشرة، أثر في شحذ وعيهم القومي وانخراطهم في العمل السياسي فيما بعد، كزملائهم

---

٨ ـ كان الانتقام من هذه القرية شنيعاً لانها كانت حجر عثرة مقابل الحي اليهودي من ناحية، كما أنها قامت أثناء ثورة ١٩٢٩، بتدمير مستعمرة صغيرة أنشئت في (عين البرانية) ولم يلبث اليهود أن أقاموا مستعمرة (عين زيتيم) مكانها والتي كانت عقبة أساسية في قطع المواصلات العربية. وتحدث عنها جميع ضباط جيش الانقاذ ورأوا ضرورة احتلالها قبل أي موقع آخر. وكان أول شهيد وصل جثمانه إلى صفد من جيش الانقاذ ممن استشهد حولها. كما قام المهاجمون بقرية (عين الزيتون) بجمع أبنائها بين الـ١٤ سنة والخمسين ولم يعرف مصيرهم حتى الآن. وفي رواية حديثة لأحد أبنائها أن ضابطاً اسرائيلياً اعترف بعد سنوات عديدة في حديث عابر مع أحد السكان العرب بعد احتلال الضفة الغربية أنهم دفنو أحياء في ضواحي القرية.

قادة ثورة تموز/يوليو في مصر الذين عاشوا تجربة مماثلة ولمسوا ممارسة السلطة آنذاك من خلال صفقات الأسلحة الفاسدة، وعدم الجدية في دخول معركة فلسطين.

أدى القلق بالاهلين إلى إرسال المزيد من الوفود للاتصال باللجنة العسكرية في دمشق أوبقادة جيش الانقاذ في بعض قرى صفد، ولاسيما رئيسها (أديب الشيشكلي)، بل ذهب وفد من رئيس البلدية و(أميل جميعان) لمقابلة الملك عبد الله الذي أجاب بالتذكير بإنذار الانكليز بعدم دخول فلسطين قبل نهاية الانتداب. وقد تخلف (أميل جميعان) لعدة أيام في عمان. . . .

في السابع من أيار ١٩٤٨، تفقد (الشيشكلي) البلدة ولكن شتان بين زيارته الأولى واستقباله في ساحة باب السور من الجموع الحاشدة من الاهلين، والمقاتلين، والقيادات المحلية وبين هذه الزيارة الخاطفة. وعاد إلى مقر قيادته. وكما سيروي بعض الضباط العاملين لديه بأنه فكر بخطة لاحتلال الحي اليهودي، بعد دعم البلدة من الداخل والزحف ببعض المصفحات عن الطريق الرئيسي مروراً (بعين زيتيم)، والتمهيد لذلك بما يتوفر لديه من المدفعية التي يمكن أن تُطلق من منطقة (ميرون) و(عين التينة) على ضفة (وادي الطواحين) المقابلة للحي اليهودي.

وبالفعل ذُهل كل العرب واليهود عندما بدأت تتساقط القنابل على الحي اليهودي، واعترف الاعداء بالخسائر التي تعرضوا لها، فقاموا بهجوم كبير في الثامن من أيار ١٩٤٨، في ثلاثة محاور، واستعملوا للمرة الأولى راجمات الالغام (دافيد ـ David)[٩] لكن صمود المدافعين العرب ولاسيما في القلعة وعلى قمتها أوقع فيهم خسائر جعلتهم يتراجعون. وفي الوقت نفسه، كانت ذخائر العرب تقارب على الانتهاء، وهم يتطلعون إلى الوفود التي ذهبت لتأتي بالسلاح، أو بانتظار قارب السلاح القادم إلى صور، والذي قام بشرائه وفد من البلدة كما ذكرنا من مصر، وفي اليوم نفسه وصل (أميل جميعان) إلى البلدة بنفسية جديدة، وقد صرح لبعض المواطنين بأنه تلقى أمراً بعدم العودة، وأنه إنما عاد ليسحب مجموعته من المدينة. ولكن (الشيشكلي) كان قد أوفد نجدة من جيش الانقاذ ومن المتطوعين غير المدربين في التاسع من أيار ١٩٤٨، وتم وضعها مباشرة في القلعة وهي مرهقة وغير خبيرة، ومع أن المدفعية العربية استمرت في إطلاق قذائفها من منطقة (ميرون)، إلا أن القوات اليهودية

---

٩ ـ راجمات الألغام بحجم البرميل لها دوي كبير دون فاعلية تدميرية.

استأنفت هجومها في يومي التاسع والعاشر من أيار ١٩٤٨، وفوجئت بسهولة احتلال القلعة بعد انسحاب المجموعة التي وصلتها في اليوم السابق، بينما صمد الاهلون في مركز البوليس مع بعض المتطوعين العرب وقاوموا بالسلاح الابيض من غرفة لأخرى.

اليوم الاخير:

مساء العاشر من أيار كان اليوم الحاسم في تاريخ البلدة وسقوطها بيد الاعداء. علمًا بأن الرئيس (ساري الفنيش) كان قد غادر في التاسع من أيار مع أغراضه الخاصة، أما (أميل جميعان) فكان يتذرع بالأوضاع العسكرية والذخيرة من ناحية، وبالأوامر الصادرة إليه من ناحية أخرى. وهنا دبت الفوضى والبلبلة في نفوس الاهلين، وكان النزوح قد بدأ في أواخر نيسان ١٩٤٨، عن طريق (وادي الطواحين). ولم تجد هذه الجموع الحزينة المغادرة تحت الأمطار وفي الطرق الوعرة معنى لسقوط البلدة ومغادرتها، سوى صب النقمة والاتهام بالخيانة على الضابطين ساري وأميل ورواية ألوان من قصص البرقيات الذاهبة إلى عمان أو الواردة منها والمطالبة باعدامهما، أو الذهول والنحيب والشرود، والسير على غير هدى نحو حدود لبنان، والبقاء أياماً في (بنت جبيل) بين البحث عن الاهل والمفقودين، ثم اتجهت أكثر الجموع إلى سوريا، واستقرت لاجئة في دمشق وحلب.

وفي الأيام الأولى من التشرد، حاول بعض الأفراد التسلل إلى البلدة لرؤية ما يحصل أو للإتيان ببعض الأوراق، أو ببعض المدفون من الأشياء. الثمينة. وقد أجمع هؤلاء على خلو البلدة من القوات اليهودية إلا في المراكز الرئيسية مع بعض الدوريات المتجولة. لكن بعض القادة الصهاينة في رواياتهم لاينكرون ذهولهم وخلو البلدة من المقاومة. كما أنهم قاموا بوضع الحواجز في المنطقة التي كان يتسلل منها أبناء البلدة في الأيام الأولى. وقد تم أسر شابين أثناء محاولتهما دخول البلدة نهاية شهر أيار ١٩٤٨ هما (سيف الدين رستم)و(محمد العفشة)اللذان عادا بعد فكاكهما من الأسر بعد توقيع الهدنة، ليرويا مشاهداتهما في الأسر وفي البلدة الخالية من أي عربي[10].

صدى سقوط صفد.

أصاب الذهول والدهشة سكان البلدة وقراها في الجليل كما كانت خيبة أمل كبيرة

---

١٠ ـ مكث في البلدة عدد محدود بعد احتلالها من المقعدين والعاجزين حملتهم السيارات اليهودية وألقت بهم على الحدود في لبنان بعد احتلالها البلدة وقراها.

للجماهير العربية، لما عُرف عنها من صمود وحصانة وتراث وطني. حتى أن بعض المعلومات أشارت إلى أن الحاج (أمين الحسيني) نفسه كان في طريقه إلى صفد اعتقاداً منه أن كفه العرب فيها راجحة، ويمكن أن يتخذ منها قاعدة لتحركه السياسي والنضالي في فلسطين. كما أن طلائع جيش الانقاذ التي وصلت إلى داخل البلدة وفي بعض المواقع حولها، كانت تتسرب منها الانباء حول أسرع الطرق للانقضاض على الحي اليهودي وتصفية العدوان.

وتحرياً للحقيقة فقد رأينا أن نضمن آراء بعض العسكريين الذين اسهموا في جيش الانقاذ في مطلع حياتهم العسكرية. ومن المصادفات أن أكثرهم قد ارتقى في مراتب عسكرية في الجيش السوري بخاصة، ومنها إلى مراكز سياسية عليا مثل (آديب الشيشكلي) الذي أصبح رئيساً للجمهورية في مطلع الخمسينات و(عبد الحميد السراج) نائباً لرئيس الجمهورية العربية المتحدة في الاقليم الشمالي أيام الوحدة بين مصر وسوريا في ظل قيادة جمال عبد الناصر. ثم (جادو عز الدين) و(هشام العظم) أيضاً ممن ارتقوا إلى مناصب عسكرية مهمة.

ومن المفيد أن نضمن الآراء وجهة نظر أحد الضباط العسكريين الصهيونيين في البلدة لمعرفة رؤية الاعداء، بل ومبالغاتهم وتجنبهم الموضوعية مستفيدين من ضعف الجانب العربي.

آراء بعض العسكريين في أسباب سقوط المدينة:

لقد أجمع هؤلاء على حقائق تتصل بالأوضاع البشرية والعسكرية والمعنوية على أرض المعركة ابتداء من أول أيار ١٩٤٨. ومثال على ذلك ماورد في مقال[١١] للسيد (جادو عز الدين) الذي شارك في المعارك ضابطاً في جيش الانقاذ: «كانت مدينة صفد ذات أهمية استراتيجية كبيرة بالنسبة إلى العرب وبالنسبة إلى الصهيونيين أيضاً. وكانت المراكز الأساسية والحيوية في المدينة تحت سيطرة القوات العربية.. فالدفاع عن القلعة كان من مسؤولية سرية المتطوعين السوريين، والدفاع عن مبنى رئاسة البلدية ومركز البوليس من مسؤولية السرية الاردنية. والدفاع عن الأماكن الحساسة في المدينة من مفارق ومنافذ،

---

١١ ـ شؤون فلسطينية، مذكرات عن حرب فلسطين سنة ١٩٤٨، جادو عز الدين، بيروت عدد ٢١ أيار ١٩٧٣.

تحت مسؤولية المقاومة الشعبية. والدفاع عن المستشفى على عاتق مفرزة صغيرة من السرية السورية مع عدد من أفراد المقاومة الشعبية بقيادة الدكتور (فيصل الركبي)»[١٢].

ويتابع قوله: «وكان القتال في صفد يزداد ضراوة يوماً بعد يوم، وانتقل العدو إلى وضع الهجوم فكان إصرارهم على احتلال القلعة لأن ذلك سيكون بداية سيطرتهم على المدينة. واستمرتِ المشكلة بالنسبة إلى الجانب العربي في تنوع الأسلحة ونقص الذخيرة... وأخذ الموقف يزداد حراجة في تكرار الهجمات الاسرائيلية كل ليلة دون انقطاع وتزايدت الخسائر في الوحدات العربية المدافعة. وتميزت الهجمات بكثافة نارية غير عادية مستخدمة مايُسمى (راجمات الالغام) ذات الصوت الانفجاري الضخم دون أثر تدميري ملحوظ، ولكن كان لها تأثيرها على معظم المقاتلين».

ويضيف: «سافر المقدم أديب الشيشكلي إلى دمشق لوضع قيادة جيش الانقاذ (العميد طه الهاشمي) في الصورة، ووصل في ٨/أيار ١٩٤٨، إلى مركز بوليس سعسع حيث كنت أقود السرية العراقية المتمركزة هناك، وأبلغني ضرورة التحرك إلى صفد ليلاً، آملاً أن يصبح دفاعها أفضل بهدف احتلال المدينة قبل ١٥/أيار ١٩٤٨ موعد دخول الجيوش العربية إلى فلسطين. وظهر اليوم نفسه، وصلت سرية من المتطوعين الاردنيين بقيادة الملازم (عز الدين التل) تقارب (١٣٠) مقاتلاً إلى (ميرون) حيث عقد (الشيشكلي) اجتماعاً خلص فيه إلى ضرورة القيام بهجوم من داخل صفد ومن خارجها على الحي اليهودي.... وهكذا دخلت السرية الاردنية إلى صفد فجر يوم ٩/٥/١٩٤٨ واحتلت مواقعها.

وتم تحديد الهجوم صباح ١٠/٥/١٩٤٨، فبدأت المدفعية في (ميرون) رمايتها عصر يوم ٩/٥/١٩٤٨ على أهدافها في الحي اليهودي تسهيلاً للدعم.. وقدرنا أن الهجمات الاسرائيلية ستستمر كعادتها ولكن ستتكسر وترتد بعد الوضع الجديد. وكنا نلاحظ المعركة وبعد أقل من ساعة اتسعت الاشتباكات واستعمل العدو الهاون وراجمات الالغام، وهدأت الانفجارات في الساعة الواحدة. وفي الثانية والنصف صباحاً أعلمنا المقدم (الشيشكلي) أن صفد قد سقطت بيد العدو».

أما العقيد الركن المتقاعد (هشام العظم) فقد روى: «بالرغم من أن سقوط صفد

---

١٢ ـ وطني بارز في الحركة القومية التقدمية في القطر العربي السوري من مدينة حماه. وقد نجح نائباً في البرلمان السوري مطلع الخمسينات.

قد جاء نهاية السلسلة إلا أن دويها كان أعظم تداولاً . . . مما أثر على المعنويات العربية تأثيراً شديداً . . ولم يكن أمام المدينة من طريق للتموين سوى (وادي الطواحين) وواسطتها البغال، ولم يتطرق أي كاتب أو باحث أو مؤرخ إلى أن الحي العربي كان محاصراً، إنما أجمعوا على أن سقوط المدينة كان صدمة غير متوقعة . ولقد زاد موقف العدو تحسناً بعد أن اتصل الحي اليهودي (بعين الزيتون) و(بيريا) بعد سقوطها. فكانت تصل الامدادات طوال الليل والنهار. كما تفرغ لمعركة واحدة بعد سقوط المدن الفلسطينية (طبريا، حيفا، يافا) فألقى بثقله في معركة صفد.

وجميع المقاتلين في صفد لايصل عددهم إلى الألف . . ولم يكن جيش الانقاذ جيشاً بالمعنى الحقيقي أو مسلحاً بما يناسب مهماته . . . وكان أمام الشيشكلي قرار لامندوحة عنه وهو الاسراع لنجدة الحامية في صفد تاركاً خطة مجابهة مستعمرة (عين زيتيم) . . وتُرك الأمر لبداهة الضباط والجنود في المدينة. فلم يكن هنالك أي مخطط دفاعي بشكله النظامي المعروف. وكانت التحصينات تتم بها تيّسر بحكم الحاجة الشخصية. وكان تصرف قائد الحامية (ساري) تصرف الحاكم العرفي يبسط النفوذ ويسيء معاملته الناس مما أدى إلى تقاعسهم بعد أن غادر (الملازم إحسان كم الماز) المدينة.

وفي حساب ميزان القوى بين الطرفين فإنه كان من الواضح أن المدينة العربية كانت محاصرة، واختل ميزان السلاح والاعداد لصالح العدو بالرغم من مواقف البطولة للمدافعين، والعجيب أن أكثر التقارير الرسمية بما فيها تقرير قائد المنطقة الشمالية (الشيشكلي) كانت خالية من بحث أسباب السقوط والاشارة إلى تلك الميازين. وفي هجوم ١٩٤٨/٥/٦، كانت خسائر العدو حوالي ٨٥٠ قتيلاً . . وسافر بعدها (ساري الفنيش) و(أميل جميعان) بزعم الاتيان بقوات من الجيش الاردني.

وفي الهجوم الثاني في صبيحة ١٩٤٨/٥/٩، قدمت سرية بقيادة الملازم (عز الدين التل) من المتطوعين اللبنانيين ومن الاغرار، يرزح عناصرها تحت تأثير زرقة التيفوئيد، ورأى قائد الحامية أن يضعها في مراكز حساسة جداً بعد كثرة الخسائر في السرية السورية . . في عمارة الحاج فؤاد والقلعة. وبدأ الهجوم الساعة العاشرة ليلاً، ولم يستطع أفراد السرية المشؤومة الثبات وفقدت المدينة أهم المراكز، عدا مركز البوليس لمناعته بعد أن لاذ أفراد السرية الجديدة بالفرار. ودبت الفوضى والذعر في الاهلين، وأمر (أميل جميعان) بالانسحاب من مركز البوليس وشرع الاهالي بالرحيل . . وكنت

مصراً على ضرورة المباشرة بالهجوم ولو بالقوات القليلة المتيسرة لاحتلال (عين زيتيم) فربما انقلب الموقف».

وتحدث وصفي التل، وكان ضابطاً في الجيش الأردني عمل في جيش الانقاذ وترأس وزارة الاردن في الستينات: «من المعروف أن سرية نجدة قد جاءت من دمشق قبل ٢٤/ساعة وأرسلت فور وصولها إلى صفد. وقد ارتكب قائد الحامية غلطة كبرى في عدم التأكد من خبرة تلك السرية التي اتخذت مواقعها ليلاً. وعندما انهزمت أمام العدو نشرت الفوضى والهزيمة في الخطوط الخلفية، ودب الرعب في السكان وانهزم الجميع».

ومن المفيد أن نشير إلى رأي قائد السرية المشؤومة الملازم (عز الدين التل) الذي قال: «قمت بتشكيل سرية من المتطوعين عددها ١٥٠ فرداً ليس بينهم من ذوي الخبرة أو التدريب السابق أكثر من ٣٠ فرداً كجنود سابقين في الجيش الفرنسي. واكتشفت أن غالبية أفراد السرية لايعرفون طريقة استعمال البندقية أو تنظيفها، واعترضت على أمر السفر يوم ١٩٤٨/٥/٩، فأعلمني (الشيشكلي) بأن دخولي البلدة سيكون للتعرف والتدريب وليس للقتال الذي قد يقع..».

ويعكس أحد أبناء البلدة في مذكراته وهو السيد (فارس الخضرا)[١٣] نقمة الاهلين على ممارسات (ساري) و(إميل) فيتحدث عن المفرزة الجديدة: «وبنادقهم لا زالت بالشحم غير جاهزة ولا يعرفون استعمالها، وسارع (إميل) بزجهم بخطوط الدفاع الأمامية بعد أن جرد تلك المراكز من حماتها المدربين والملمين بمنافذ صفد ومخارجها، مدّعياً بأنه سيقوم بعملية التفاف حول الحي اليهودي واحتلاله، وأوعز (لساري الفنيش) بمغادرة صفد، فغادرها المذكور وجلس في (عين التينة) بوادي الطواحين ينتظر تعليمات الخائن (إميل جميعان).

وما أن حل الظلام إلا وقام اليهود بهجومهم المتفق عليه في ليلة حالكة غزيرة المطر وشديدة البرد، فباغتوا الناس بجميع أنواع أسلحتهم، فاضطرب السكان الذين أصبحوا شبه عزل من السلاح والعتاد. إذ أن المسلح من أبناء صفد لم يكن يملك إلا بضع طلقات، وأما جيش (إميل) فكان يحض الأهالي على الرحيل ليتمكنوا من الالتفاف حول اليهود، فنزح الناس تحت المطر لايعرف الأخ أخاه ولا الابن أباه وأمه».

---

١٣ ـ من مخطوطة اطلعنا عليها المناضل فارس يحتفظ بها فقد كان يسجل الوقائع اليومية لنضال أبناء البلدة ولا سيما التي أسهم فيها شخصياً.

ويتحدث (ماير مانستر) وهو أحد قادة الوحدات الصهيونية في صفد، عن هذه المعركة منذ صدور قرار التقسيم حتى سقوط المدينة بيد جيش الهاجانا فيذكر: «كانت أول تجربة قاسية في ١٩٤٧/١٢/٢١ حين هاجم العرب المدرسة الصناعية المنعزلة عن الحي اليهودي، وكانت تضم ٦٠ شاباً وزحف قائد ذلك القطاع بقواته لحماية المدرسة، وبعد انقضاء ثلاث ساعات متواصلة وصلت القوات البريطانية[١٤] وكنا قد فقدنا عدداً كبيراً من مقاتلينا. ثم فرضنا على طريق عين الزيتون ـ صفد حصاراً عن طريق رمي قناصتنا للمواصلات على هذه الطريق، وبذلك فرضنا الحصار على طريق عكا ـ صفد أيضاً. وطالما أن صفد لم تستطع استعمال طريق روشبينا (الجاعونة) فقد اصبحت معزولة وبذلك قابلنا الحصار العربي بحصار مثله.

وليلة ١٩٤٨/٥/١، انفجرت أول قنبلة من راجمات (ديفيد ـ David) فوق (عين الزيتون) العربية، وفتحنا النار من جميع جهات الحي اليهودي على صفد بشكل عنيف لتضليل العدو والتغطية على العملية التي كانت تجري في (عين الزيتون) و(بيريا)، واستطاعت قوات البالماخ في صبيحة ذلك اليوم من احتلالها.

وفي كل ليلة كانت تصل إلينا وحدات البالماخ وكلهم على استعداد في انتظار صدور الأوامر لبدء المعركة. وفي ليلة ١٩٤٨/٥/٨، قمنا بهجوم سريع على صفد العربية لاحتلال الفيطمة (رأس القلعة) وما حولها. وكان العرب يمطروننا بنيران مجنونة وعلى نفس واحد. وكانت أقسى المعارك ومواقع الالتحام، وهناك تبيّن أن العرب حصنوها جيداً، وأقاموا فيها سلاحاً ماضياً كان يزرع الموت في كل اتجاه ينصب عليه.

ولما لم تصل المعركة إلى نتيجة حاسمة، فقد صدرت لنا الأوامر بالانسحاب من جهة القلعة، وقام العرب في اليوم التالي بهجوم معاكس في جميع الجهات. واستعادوا في هجومهم احتلال المدرسة الصناعية. وفي يوم الأحد ١٩٤٨/٥/١٠، كانت كلمة السر (صفد المحررة) وحانت ساعة الصفر، وكانت أعنف الضربات موجهة إلى (الفيطمة) المحصنة جيداً ولم تمض ساعة واحدة على المعركة حتى سقطت بأيدينا بفضل مدافع (الفيات). وقد دارت المعركة في جو مطير عاصف. وانتشرت أنباء سقوط (الفيطمة) بين سكان الحي اليهودي. وكان الهجوم مستمراً في اعنف أدواره على قسم البوليس، وقذفنا

---

١٤ ـ الملاحظة التي وردت عفواً لدى هذا الضابط الصهيوني كافية لاظهار دور القوات البريطانية في مختلف المناسبات.

هذا المركز العربي المحصن بموجات متعاقبة من جنودنا، وفي النهاية نفذ مقاتلونا إلى داخل العمارة، ودار قتال في كل غرفة وكل شبر. وهكذا سقطت بأيدينا. وشرع رجالنا في تطهير الحي العربي ثم صعد رجالنا إلى سطح مركز البوليس وانزلو الاعلام السورية والعراقية وهكذا قامت الكتيبة الثالثة من البالماخ بتحرير صفد».

ومن المفيد أن نستشهد بما ورد في كتاب المناضل الفلسطيني(ابراهيم أبو لغد)[15] الذي استند في بعض معلوماته على مصادر صهيونية وبعض قادتها، حيث ذكر عن سقوط البلدة: «إن النزوح من الجليل الشرقي قد بدأ مع الاستيلاء على طبريا وتفريغها من السكان، وهنا أيضاً عن طريق استخدام (قنابل البراميل) ومكبرات الصوت و(أصوات الرعب)»[16]، ففي ٢٨ نيسان ١٩٤٨، عندما سحبت القوات البريطانية من صفد، انطلقت وحدات البالماخ في مسيرتها من طبريا لتستولي على كل القرى العربية الواقعة في طريقها وتقوم بتخريبها وتهديمها، حيث أن اسم الشيفرة لهذه العملية دُعّي بـ(المكنسة) ثم هُوجمت (صفد) بقنابل البراميل ومدافع الهاون (دافيدكا)، ونسفت المنازل واحداً تلو الآخر، ومكبرات الصوت التي بثت رسالة القنبلة الذرية[17] وانطلاقاً من هذه البدايات كتب قائد البالماخ في وقت لاحق يقول: «رأينا الحاجة إلى تطهير الجليل الأوسط» اقتصادياً بقدر الامكان «لحمل عشرات الآلاف من العرب المتجهمين الذين بقوا في الجليل على الهرب». ثم يصف هذا القائد كيف قام بتدبير هذه المسألة فيقول:

«جمعت كل المخاتير اليهود من الذين كانوا على اتصال مع العرب في القرى المختلفة، وطلبت إليهم أن يهمسوا في آذان بعض العرب، أن تعزيزات يهودية كبيرة

---

١٥ ـ من كتاب «تهديد فلسطين»، د. ابراهيم أبو لُغد، سلسلة كتب فلسطينية.

١٦ ـ استقدم الاسرائيليون سيارات (الجيب) المزودة بمكبرات الصوت لكي تذيع تسجيلات لاصوات الرعب، وتضمنت هذه التسجيلات الصرخات والعويل والأنين المكروب للنساء وزعيق صفارات الانذار ورنين أجراس سيارات الاطفاء حيث قاطعها صوت ينادي بالعربية «ياجميع المؤمنين انقذوا أرواحكم واهربوا وانجوا بحياتكم، اليهود يستعملون الغاز السام والاسلحة الذرية، اسرعوا في الفرار ناجين بأنفسكم على اسم الله».

١٧ ـ Heiman «All's Fair»، من مقالة «هايمان» بعنوان «كل شيء مشروع»

وصلت إلى الجليل، وسـوف تقوم هذه بإحراق جميع القرى في سهل الحولة. وعليهم الايحـاء إلى هؤلاء العرب، بصفتهم أصدقاء، أن يهربوا قبل فوات الأوان. فانتشرت الشائعة في كل مناطق الحولة بأنه قد حان وقت الهرب وبلغ عدد الهاربين عشرات الآلاف[١٨]».

فمن صفد ومن الجليل تحول قرابة (٥٠) ألف عربي أيضاً إلى (لاجئين) مع حلول اللحظات الحاسمة لنهاية سلطة الانتداب البريطاني.

---

١٨ ـ ييغال آلون، «كتاب البالماخ» م٢ ص ٢٨٦، ويتضمن الكتاب بالعبرية خريطة تظهر فيها الطرق الفعلية لهرب المدنيين العرب إلى لبنان وسوريا.

مراجع الكتاب

١ ـ النـوادر السلطـانيـة والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين الأيوبي) لبهاء الدين بن شداد، مطبعة وزارة الثقافة دمشق ١٩٧٩ .
٢ ـ نخبة الدهر في عجائب البر والبحر. لشيخ الربوة، مطبعة وزارة الثقافة دمشق ١٩٨٣ .
٣ ـ الموسوعة الفلسطينية .
٤ ـ الموسوعة البريطانية .
٥ ـ الموسوعة اليهودية .
٦ ـ «صفد في التاريخ» محمود العابدي، جمعية عمال المطابع التعاونية عمان ١٩٧٧ .
٧ ـ مجلة شؤون فلسطينية، بيروت ١٩٧٣ .
٨ ـ مجلة الشرق، رحلة رسوليّة في الجليل، مجلد ٢١ للأب توتل اليسوعي.
٩ ـ مجلة المشرق، سياحة في بلاد بشارة الخوري ابراهيم حرفوش ١٩١٧ .
١٠ ـ The Land and the book ، الدكتور طومسون (الارض والكتاب) بلا تاريخ.
١١ ـ صبح الأعشى في صناعة الانشا، للقلقشندي، مجلد ٤، مصر.
١٢ ـ بلادنا فلسطين، مصطفى الدباغ، القسم الثاني بيروت ١٩٧٤ .
١٣ ـ الفتح القسي في الفتح القدسي، العماد الاصفهاني، القاهرة، بلا تاريخ.
١٤ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك، المقريزي، تحقيق ونشر د. محمد مصطفى زبادة، القاهرة ١٩٦٣.
١٥ ـ ولاية بيروت الجنوبية، وفيق التميمي وبهجت الحلبي، بيروت ١٣٣٣هـ.
١٦ ـ رحلة أولياشلبي، ترجمة محمود العابدي عن اللغة الانجليزية.
١٧ ـ الروض الزاهر لابن عبد الظاهر، بلا تاريخ.
١٨ ـ اعلام الدرى، ابن طولون، بلا تاريخ.
١٩ ـ مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، عبد العزيز الدوري، دار الطليعة، بيروت ١٩٦٩.

٢٠ ـ الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي.
٢١ ـ زبدة كشف الممالك، ابن شاهين الظاهري.
٢٢ ـ مخطوطة ظاهر العمر (قائد فلسطيني استقلالي) ابراهيم الدين السامري، تحقيق وشرح موسى أبو ديّة، منشورات مؤسسة بيسان، نيقوسيا ١٩٨٦.
٢٣ ـ تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني، ميخائيل صباغ العكاوي، مطبعة حريصا بلا تاريخ.
٢٤ ـ ظاهر العمر، توفيق معمر ١٩٧٩، مطبعة الحكيم، الناصرة.
٢٥ ـ وثائق فلسطينية، أكرم زعيتر، مركز الأبحاث الفلسطينية.
٢٦ ـ الاقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان، آ. ن. بوليان ترجمة عاطف كرم، بيروت ١٩٤٨.
٢٧ ـ فلسطين والانتداب البريطاني، كامل محمود خلة. ١٩٢٢/ ١٩٣٦ بيروت، مركز الأبحاث الفلسطيني ١٩٧٤.
٢٨ ـ مجلة فلسطين الثورة، عدة أعداد.
٢٩ ـ المجاني الحديثة عن مجاني الأب شيخو، المطبعة الكاثوليكية بيروت.
٣٠ ـ فلسطين في مذكرات القاوقجي ١٩٣٦ ـ ١٩٤٨ مركز الابحاث دوار القدس ١٩٧٥.
٣١ ـ تهويد فلسطين، د. ابراهيم أبو لغد. مركز الأبحاث الفلسطينية ١٩٧٢.

صدر عن سلسلة المدن الفلسطينية :

١ ـ يافا
٢ ـ عكا
٣ ـ نابلس
٤ ـ رام الله والبيرة
٥ ـ الرملة
٦ ـ القدس
٧ ـ بيسان
٨ ـ بئر السبع والصحراء الفلسطينية
٩ ـ بيت لحم
١٠ ـ جنين
١١ ـ صفد

يصدر عن هذه السلسلة :

١ ـ الخليل
٢ ـ حيفا
٣ ـ الناصرة
٤ ـ طولكرم
٥ ـ أريحا
٦ ـ اللد
٧ ـ المجدل وعسقلان
٨ ـ طبريا
٩ ـ غزة
١٠ ـ خان يونس

حين يكون الوطن بعيداً أو أنت مبعد عنه. . . .

وحين تستمر أجيال الوطن في التوالد بعيدا عن أرضه دون أن تلمس ترابه أو تشم ثراه المجبول بالدم والمعطر برائحة البرتقال والزيتون. . .

وحين يكون الحنين لفلسطين مدنا وقرى وبحرا وسهلا وجبلا يتردد صداه غناء وبكاء في كل بيت وصدر فلسطيني. . .

وحين يعمد العدو الغاصب ـ وبعد أن اقتلع الشعب من وطنه ـ إلى اقتلاع حجارة الوطن وأشجاره ليمحو مدنه وقراه وآثاره بهدف تغيير معالم الوطن ورسم صورته على هواه. . . .

وحتى تظل فلسطين تاريخاً وتراثاً وحضارة ونضالا حية في عقل كل فلسطيني وعربي . . .

وحتى تظل فلسطين مجسّدة بجبالها وسهولها ومعالمها في عيون كل الأجيال الفلسطينية والعربية وهي تناضل من أجل تحريرها واستعادتها. . كان علينا أن نقرّبها، أن نقرّب الوطن البعيد من الأجيال التي لم يكتب لها أن تراه حتى الآن، فكانت هذه السلسلة من الكتب التي جاءت ثمرة تعاون بناء بين المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ودائرة الثقافة بمنظمة التحرير الفلسطينية.

عبد الله الحوراني

الثمن : **الأردن** ١ دينار ، **الإمارات العربية المتحدة** ١٠ درام ، **المملكة العربية السعودية** ١٠ ريال ، **قطر** ١٠ ريال ، **الكويت** ١ دينار ، **سورية ولبنان** ٢٥ ل.س ، **والبلدان الأخرى** ٢ دولار .